سعي الآخرة

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾

أيها القارئ الكريم:

إن لقاءنا معك يُقْصَدُ به أن تحيا مع كتاب الله وسُنَّةِ رسوله ﷺ. تقرأ الآيةَ أو الآيات ثم ترى بيانَها من سُلوك رسول الله ﷺ أو قولِه أو إقْرارِه، ولكي تتابع معنا في دراسة متصلة أودُّ أن أتدبر هـذه الآيات في سورة الإسـراء من أولِ قولـه تعـالى ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، إلى قوله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾[2]

✿✿✿

إن سعادة الآخرة تكون لمن أرادها وطَلَبَها وسَعَى لها سَعْيَها وهو مؤمن، وهذه الآيات التي دُعيتَ إليها تفصِّل سَعْيَ الآخرة وتبين الطريقَ إليها بذِكر ستِّه وعشرين نوعاً من أنواع التكاليف. ومع أنها سبيلك إلى الآخرة، هي في الوقت نفسه أقومُ الضوابط للسُّلوك الإنساني، وطُهرِ المجتمع من الخبائث التي تُضعفه وتُحطم روابطه، إنها الضوابط التي تأخذ بيد المجتمع الإنساني إلى أرفع مكانة ينشدها وأعلى

(١) الإسراء : ٢٢.

(٢) الإسراء : ٣٩.

منزلة يرجوها. ولذا فإننا سنرى آثارها سلباً وإيجاباً في حياة الناس. في الدنيا قبل أن تأخذ بيدهم راشدين إلى الآخرة.

إننا أمام ستّةٍ وعشرين نوعاً من أنواع التكاليف؛ ما بين مأمور به - وهو أغلبُها - ومنهيٌّ عنه - فاحفظ واعمل، **وقد قال النبي ﷺ**: « **مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ** »(١)، ﴿ **وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴿١١﴾ ﴾(٢)

الأول: التوحيد: وقد ورد في قوله: ﴿ **لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** ﴿٢٢﴾ ﴾(٣)

الثاني: الأمرُ بعبادة الله وحده.

الثالث: والنهيُ عن عبادة غيرِه. وقد ورد في قوله: ﴿ ۞ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ** ﴾(٤)

الرابع: برُّ الوالدين: ﴿ **وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ** ﴾(٥)

الخامس: النهيُ عن الإساءة إليهما بقول، ولو بأدنى مراتب القول السيئ ﴿ **فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ** ﴾(٦)

---

(١) متفق عليه.

(٢) التغابن : من الآية ١١.

(٣) الإسراء : ٢٢.

(٤) الإسراء : من الآية ٢٣.

(٥) الإسراء : من الآية ٢٣.

(٦) الإسراء : من الآية ٢٣.

obeikandl.com

السادس: عدم الإساءة بفعل قبيح ولو بأدنى مراتبه: ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ [١]

السابع: أن تُحسن إليهما بالقول الكريم: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [٢]

الثامن: أن تُحسن إليهما بالفعل الجميل: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [٣]

التاسع: أن تدعو الله لهما في حياتهما وبعد موتهما: ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [٤]

العاشر: الإحسان إلى القرابة وصلةِ الأرحام بعد الإحسان بالوالدين: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ [٥]

الحادي عشر والثاني عشر: أداء الحق للمسكين وابن السبيل: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [٦]

الثالث عشر: النهى عن التبذير وهو الإنفاق في غير الحق ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [٧]

الرابع عشر: القول الميسور: قد لا تملك ما تعطيه لهؤلاء الذين أُمرت بإعطائهم: ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [٨]

---

(١) الإسراء : من الآية ٢٣.
(٢) الإسراء : من الآية ٢٣.
(٣) الإسراء : من الآية ٢٤.
(٤) الإسراء : من الآية ٢٤.
(٥) الإسراء : من الآية ٢٦.
(٦) الإسراء : من الآية ٢٦.
(٧) الإسراء : من الآية ٢٦.
(٨) الإسراء : من الآية ٢٨.

الخامس عشر: النهي عن البخل والشح:﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾[1]

السادس عشر: النهيُ عن الإسراف، وهو أن تعطِيَ فوق طاقتك: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾[2]

السابع عشر: النهيُ عن قتل الأولاد: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾[3]

الثامن عشر: النهي عن الزنا: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[4]

التاسع عشر: النهيُ عن قتل النفس بغير حق شرعي: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾[5]

العشرون: العدل في القصاص: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾[6]

الحادي والعشرون: المحافظة على مال اليتيم: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[7]

---

(١) الإسراء : من الآية ٢٩.
(٢) الإسراء : من الآية ٢٩.
(٣) الإسراء : من الآية ٣١.
(٤) الإسراء : ٣٢.
(٥) الإسراء : من الآية ٣٣.
(٦) الإسراء : من الآية ٣٣.
(٧) الإسراء : من الآية ٣٤.

الثاني والعشرون: الوفاء بالعهد ﴿ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (١)

الثالث والعشرون: وفاءُ الكيل من غير تطفيف: ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ (٢)

الرابع والعشرون: العدلُ في الميزان: ﴿ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ﴾ (٣)

الخامس والعشرون: النهيُ عن القول بلا علم ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ﴾ (٤)

السادس والعشرون: النهيُ عن التجبر والتبختر في المِشْية ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ ﴾ (٥)

أخي القارئ الكريم:

ما قرأتُ مِما أمر الله به من الأخلاق الجميلة، أو النهي عنه من الصفات الرذيلة – من وحي الله الذي أوحى به إلى محمد ﷺ ليأمر الناس به ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ (٦)

ويحسن بنا وقد أجملنا الموضوعات التي اشتملت عليها الآيات الثمانية عشرة أن نَمْضِيَ – إن شاء الله – في التفصيل، لنرى بيان الرسول ﷺ لكل نوع من أنواع

---

(١) الإسراء : من الآية ٣٤.
(٢) الإسراء : من الآية ٣٥.
(٣) الإسراء : من الآية ٣٥.
(٤) الإسراء : من الآية ٣٦.
(٥) الإسراء : من الآية ٣٧.
(٦) الإسراء : ٣٩.

هذه التكاليف، وقد كان خُلُقُهُ القُرآن، يرضى برضاه ويسخط بسخطه ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ (١)

وإذا أدينا المأمور به، واجتنبنا المنهيَّ عنه نكون قد حققنا لأنفسنا خير الدنيا مع سعي الآخرة، ورجونا رحمة الله ورضوانه ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (٢)

✿✿✿

ما دُعيت إليه من سعي الآخرة لا يصلح أمْرُ الدنيا إلا به..

أيها القارئ الكريم:

مع الآيات من سورة الإسراء: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣) إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ (٤)

وقد عرفتَ من قبل ما تشتملُ عليه هذه الآيات من أنواع التكاليف. وهذه التكاليف هي سعيُ الآخرة التي قال الله عنها: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا

(١) الحشر: من الآية ٧.
(٢) الإسراء: ١٩.
(٣) الإسراء: ٢٢.
(٤) الإسراء: ٣٩.

سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ ﴾ [1]

ومن فطرة هذا الدين أن جعلَ صلاحَ الدنيا بعمل الآخرة، فإن عملَ الآخرةِ وسعْيَها هو مضمون البر الذي تنشده الدنيا لتظفرَ بالسلام والأمن.

إن الأعمالَ الصالحة مع الإيمان بالله هي زادُ الإحسان إلى جنةِ الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [2]

فأين تقع هذه الأعمال الصالحة:

إنها تقع في الدنيا، ويكون الجزاء في الآخرة من جنس العمـــل.

﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [3]

﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [4]

وما دامت الدنيا هي دار العمل - الذي يتم عليه الجزاء في الآخرة -، فإن سعي الآخرة يُحقّق أفضل الروابط بين الناس في الدنيا، و « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » [5]

---

(١) الإسراء : ١٩.

(٢) الكهف : ١٠٧.

(٣) الزلزلة : ٧، ٨.

(٤) آل عمران : ٣٠.

(٥) رواه الترمذي.

إن الإيمان بالله واليوم الآخر يمنح الدنيا رُشدَها وخُلُقها، ويعطي الآخرة حظَّها ونعيمها، ويُمسك بزمام الإنسان راشداً في الدنيا مُوصولاً بالآخرة، فتستبين الحكمة من الخلق، ويرتفع العبثُ من منطق الفكر. فتمضي الحياةُ ندية بذكر الله، وتأتي الآخرة آمنة مُطمئنة برحمة الله.

إن الإيمان بالله واليوم الآخر يضع في كل شئ خُلُقَه، أي يضع فيه عنصر النجاة، إذ يجعل إنسانية الإنسان هي التي تسيطرُ على شئون الحياة، وهي التي تسرعُ به إلى الخير عملاً وتخليداً ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾ (١)

ولم أر شيئاً بَرَّ بصاحبه وأمَّنه من العَواصف الهوج والأمواج المظلمة الصاخبة، مثلَ الإيمان بالله واليوم الآخر، بَرَّ به في الدنيا فَطَرَدَ اليأس من قلبه، وبعث الطمأنينة فيه بذكر ربِّه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾ (٢)، وجَعَل الأحداث تَبْنيه ولا تهدمُه، والمصائبَ تعليه ولا تصْغِره ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٤١ ﴾ (٣)

---

(١) المؤمنون : ٥٥- ٦١.

(٢) الرّعد : ٢٨.

(٣) آل عمران : ١٤١.

أقامَ في نفسه الغنى، فبذل ما في يده للناس ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾[1]، وأحاط نفسه بالقناعة فطمعت في الفضائل.

والفضائل بضاعة تزكو بالتنافس عليها، وتنمو إذا أخذ الجميعُ منها. وهي تربط بين طالبيها برباطٍ وثيق، تجمعهم ولا تفرقهم، وتشيعُ بينهم الإيثار والحب، وتقضي على عواملِ الأثرة والبغض.

✿✿✿

و لم أر جمعاً توجَّه إلى سبيل واحدة، فتوحَّد قصداً وعملاً، مثل الركب الساعي إلى الآخرة المتوجه إلى الله. إنه ركب تخشى ذئابُ الهوى أن تقترب منه، وتأبى نوازعُ الشر أن تنـــزل بساحته.

إنه يُجير مَن استجاره، ويفي لمن تعهد له، يقول الحقَّ ولو على نفسه، ويعدل في حُكمه مع ألدِّ أعدائه.

والإنسانية حين يَغْمُرها طوفانُ الهوى، وتلاحقُها أمْواجُ الباطل في ظل الحضارة الظالمة المظلمة، ليس أمامها - وهي تجرب سُبُلَ الإنقاذ، وتكاد تلفظ أنفاسها بين أمواج الأحداث المتلاحقة، وطوفان الهوى الغامر، وصراع الأهواء والشهوات - ليْس أمامها إلا سفينةُ الإيمان بالله واليوم الآخر.

إذن فسعي الآخرة - الذي وضَّح الحق - جَلَّ وَعَلاَ - سبيلَه، ويَسَّر طريقه هو السبيلُ الوحيد لتحقيق الأمن والسلام والرحمة والبر بين الناس.

---

(١) المؤمنون : ٦٠، ٦١.

أما إرادة الحياة الدنيا - دون نظر إلى الآخرة - فإنه الطريقُ لخسارة الدنيا والآخرة معاً؛ لأن الإنسان معها لا يثبتُ لتحقيق عدل أو مناصرة حق، بل يتذبذب وراء المنافع حيث كانت ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (١)

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

✿✿✿

أيها القارئ الكريم:

أولى التكاليف في سعي الآخرة، بل أصل التكاليف: ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ (٢)

أخرج الشيخان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ لما بعثَ معاذاً إلى اليمن قال له: « إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ، هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ » (٣)

إن دعوة الرسل جميعاً موجهة إلى وحدانية الله وعدم الإشراك به: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٤)

---

(١) الحج : من الآية ١١.

(٢) الإسراء : ٢٢

(٣) رواه البخاري.

(٤) الأنبياء : ٢٥.

وكلُّ فساد في حياة الإنسانية منذ وجدت يرجع أصلُه إلى الإشراك بالله ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (١)

إن التوحيد يتضمن صِدْقَ العبودية لله، فلا يتعلق الرجاءُ - في الحصول على المحبوب، أو دفع المكروه - إلا به، ولا تذل النفس - برغباتها وأشواقها - أمام حجر، أو شجر أو بشر، بل يكون خضوعها ورجاؤها لله وفي الله وحده، واستنادها واستعانتها بالله وحده: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ (٢)

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٣)

كم من ناس زعموا الإيمان بالله، ووقعوا بسلوكهم في ما وقع فيه أهل الشرك والرياء، فتراهم يوالون لمنافعهم، لا لله، ويعاودون من أجل أهوائهم، لا من أجل الله. ويرجون ما سوى الله، ويُراءون الناس بأعمالهم، ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ

(١) يُوسُف : ١٠٦.
(٢) الفاتحة : ٥.
(٣) الشعراء : ٧٥ - ٨٢.

وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

فمَنْ غير الله يملك أن يعطيَ ويمنع، ويُحيي ويميت، ويمد بالخير ويكشفُ الضُرَّ ؟

لا أحد إلا الله ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢) ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣)

من هنا كانت دعوةُ الرسل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، دعوةً إلى تحرير الإنسان من كل أسباب الذل والهوان. وما أذل مَن يخضعُ لشجر، أو يركنُ لحجر، أو يستمدُ إلى بشر. إنه الذل في أحطّ صُورة، أن يُرى الإنسان أسير عاداتٍ باطلة أو عبد شهوات زائلة، أو سجينَ هوى متسلط ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن

---

(١) العنكبوت : ١٧.

(٢) يُونس : ١٠٧.

(٣) الأنعام : ١٣ – ١٨.

دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1]

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾[2]

أخرج الإمام مسلمٌ عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: « يَقُولُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ »[3]

أخي المسلم:

إن مكانة هذه الأمة في توحيدها، وتوحيدُها في إخلاص العبـــادة لله وحده: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾[4]، ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[5]

والعبادة الصادقة لله تحقق آثارَها من: عزَّة النفس، وصدقِ القول، وطمأنينة القلب، تحقق آثارها في السّلوك العملي للإنسان، وفي إخضاع كل شئ لله وحده لا شريك له ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[6]

---

(١) آل عمران : ٦٤.

(٢) الإسراء : ٢٢.

(٣) رواه مسلم.

(٤) النساء : من الآية ٣٦

(٥) الإسراء : من الآية ٢٣.

(٦) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣.

ولا يُعَرِّضُ الإنسانَ لخطر داهم إلا لَوْثَة شرك ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [1]

ولا أَمْنَ للإنسان ولا أمان له إلا بتوحيدٍ خالص ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [2]

روى مسلمٌ عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ » [3]

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.

✿✿✿

(١) الزُّمَر : ٦٥.

(٢) الأنعام : ٨٢.

(٣) رواه مسلم.

obeikandl.com

سعي الآخرة

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

أيها القارئ الكريم:

لا زلنا نحيا في رحاب تدبر الآيات من سورة الإسراء.

من أول قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [1] إلى قوله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [2]

وقد عرفْتَ أن هذه الآيات قد اشتملت على أنواع من التكاليف. بدأت بالأصل الذي لا يُتَقَبَّل عملٌ إلاَّ به وهو التوحيد. والأمرُ بعبادة الله وحده، والنهيُ عن عبادة غيره، وقد مضى الحديث في الآية التي تضمنت ذلك ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [3]

✿✿✿

الآن نتدبر نوعاً آخر من التكاليف التي جعلها الله من سَعْي الآخرة ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [4]،

---

(١) الإسراء : ٢٢.

(٢) الإسراء : ٣٩.

(٣) الإسراء : من الآية ٢٣.

(٤) الإسراء : ١٩.

ولا تنس ما ذكرناه من قبل من أن أمر الدنيا لا يصلحُ إلا بسعي الآخرة.

نحن الآن مع قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [1]، وقد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين تالياً في الذِّكر للأمرِ بعبادةِ الله أو النهي عن الإشراك في أربع سُور.

في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [2]

وفي سورة النساء: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [3]

وفي سورة الأنعام: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ ﴾ [4]

وفي سورة الإسراء: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [5]

وفي هذه السور الأربع نرى أن الأمر بالإحسان جاء تالياً للأمر بعبادة الله أو النهي عن الإشراك به، وفيه من رفع المكانة والاعتناء بشأن الوالدين ما فيه.

---

(١) الإسراء : من الآية ٢٣.

(٢) البقرة : من الآية ٨٣.

(٣) النساء : من الآية ٣٦.

(٤) الأنعام : من الآية ١٥١.

(٥) الإسراء : من الآية ٢٣.

obeikandl.com

ومما يلفت النظر أن صيغة البر بالوالدين جاءت أمراً بالإحسان و لم تجئ نهياً عن الإساءة، مع سبقها بالنهي عن الإشراك في بعض الآيات !

وفيه من الدَّلالة على أن حقَّ الوالدين لا يتقرر بترك الإساءة، وإنما بفعل الواجب وهو الإحسان. ولذلك عُدِّيَ الإحسان « بالباء » التي تدل على إلصاق الإحسان بالوالدين دون واسطة أو فاصل، و لم يُعَدَ بـــ « إلى » التي تفيد الغاية، والغاية قد تتحقق ولو بشئ من التسويف والتأخير.

وما أجمل أن ترى الإحسان يأتي في سور ثلاث أخرى بأسلوب الإيصاء.وهو يدل على العناية البالغة. والإيصاء لا يكون إلا في أمر ذي بال.

في سورة العنكبوت: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

وفي سورة لقمان: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ

(١) العنكبوت : ٨.

فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [1]

وفي سورة الأحقاف: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴾ [2]

وقد كشفت الآياتَ في سورة العنكبوت ولقمان عن حالةٍ واحدة خَاصَّةٍ، يُباح للإنسان فيها عِصْيانُ والديه وعدمُ امتثال أمرِهما، وهي حالة مجاهَدتهما لوَلَدهما لأن يُشرك بالله ما ليس له به علم ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [3]

✿✿✿

وإذا تأملنا آية الإسراء - التي نتدبر معانيها - وهي تأمر بالإحسان إلى الوالدين دائماً، ومراعاة حالهما في جميع الأحوال، وبخاصة في حالة الشيخوخة التي تحتاج إلى نوع من الرعاية الشاكرة.. نرى أنها قد وجَّهت أمرين ونهيين بعد الأمرِ بالإحسان؛ نهت أولا - ولم تكتف بالنهي -؛ لأن حق الوالدين لا يتقرر بالكف عن القبيح فحسب، وإنما يتقرر بفعل الصالح الحسن، ولذا نراها أمرت بعد أن نهت ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ [4]

(١) لقمان : ١٤، ١٥.
(٢) الأحقاف : من الآية ١٥.
(٣) لقمان : ١٥.
(٤) الإسراء : من الآية ٢٣.

نهيٌ عن الإساءة إليهما بالفعل القبيح ولو بأدنى مراتبه، كما قال عطاءُ بنُ رباح في قوله ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾

وبعد النهي عن القول القبيح أو الفعل القبيح نرى الأمر بالقول الحسن والفعل الحسن ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1] أي: ليّناً طيباً حَسَنا بأدب وتوقير ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [2] أي: تواضع لهما بفعلك.

أخي القارئ الكريم:

تلك أوامر القرآن في البر بالوالدين، فماذا نرى فيه من بيان مَنْ **كان خُلُقُهُ القُرآن** ﷺ في هذا الشأن.

في الحديث المتفق عليه عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: « سَأَلْتُ النَّبيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّه ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا. قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ. قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه. قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي » [3]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتْ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائذ مِنْ الْقَطِيعَة. قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَك، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَك ؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَذَاك لَك. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي

---

(١) الإسراء : من الآية ٢٣.

(٢) الإسراء : من الآية ٢٤.

(٣) متفق عليه.

ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾[1] » [2]

وفي رواية للبخاري: « مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ » [3]

وروى مسلمٌ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « رَغِمَ أَنْفُ [4] ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ. قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا، أَوْ كِلَيْهِمَا، فَلَمْ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ » [5]

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عَنْهُمَا– قال: « أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، أَبْتَغِي الأَجْرَ مِنْ اللَّهِ. قَالَ: فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ ؟ قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلاهُمَا. قَالَ: فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنْ اللَّهِ ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا » [6]

وفي رواية لهما: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ » [7]

وفي البخاري عن أبي بَكْرَةَ نفيع بن الحارث ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: « أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ. ثَلاثًا. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه. قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّه، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ. وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ. قَالَ: فَمَا زَالَ

---

(١) محمد : ٢٢، ٢٣.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) قوله « رَغِمَ أَنْفُ » كناية عن الذل، كأنه لصق بالرغام وهو التراب هَواناً وَذُلاً.

(٥) رواه مسلم.

(٦) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٧) متفق عليه.

يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ » [١]

وفي الحديث المتفق عليه عن ابي مُحمَّد جُبَيرِ بن مُطْعِم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ » قَالَ سُفْيَانُ: يَعْنِي قَاطِعَ رَحِمٍ. [٢]

أخي القارئ الكريم:

قد قرأت آيات رِّبك ورأيت البيان من سنة نبيك في بر الولدين وترى الرسول ﷺ يدعوك في برِّهما إلى أبعد منْ ذلك حيث يأمرك بإكراك صديقهما والإحسان إليه « إِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ » [٣]

روى أبو داود عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ قَالَ: « بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا ؟ قَالَ: نَعَمْ. الصَّلاةُ عَلَيْهِمَا [٤] وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لا تُوصَلُ إِلاَّ بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا » [٥]

أخي القارئ الكريم:

احذر عقابَ الله أن تقطع ما أمَر اللهُ به أن يوصل فإن ذلك موجبٌ للعنة وسوء العاقبة ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) المقصود بالصلاة عليهما : الدعاء، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾ الإسراء : ٢٤.

(٥) رواه أبو داود.

آلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [1]

اللهم اجعلنا أهلاً لوَصْلك، ووفقنا أن نَصِلَ ما أمرت به أن يوصل، واجعل أمرنا كلَّه خالصاً لوجهك، إنك نِعْمَ المولى، ونِعْمَ النصير..

❁❁❁

(١) الرعد : ٢٥.

obeikandl.com

سعي الآخرة

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

أيها القارئ الكريم:

نكمل الحديث عن سعي الآخرة راجين أن يوفقنا الله إلى طاعته ورضاه.

مضى الحديث من قبل - في سعي الآخرة - عن الأصل الذي لا يَصْلُحُ أمرٌ إلاَّ به وهو التوحيد، والأمرُ بعبادة الله وحده، والنهيُ عن عبادة غيره، وكذلك مضى الحديث عن البر بالوالدين ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (١)

ونحن الآن نعيش مع قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (٢) نقرأ آيات الله ثم نرى البيان من حديث رسول الله ﷺ وقد **كان خُلُقُهُ القُرآن**، يرضى برضاه ويسخط بسخطه، فما أمر القرآنُ به كَانَ أسْبَق الناس إليه، وما نهى عنه كان أبعَد الناس عنه.

هذه أنواعٌ من التكاليف لسعي الآخرة ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

وأُذكِّرك بما عرفْتَ من قبل أنَّ أمرَ الدنيا لا يَصْلح إلا بسعي الآخرة ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾(٣)، وفي سور

(١) البقرة : من الآية ٨٣.

(٢) الإسراء : من الآية ٢٦.

(٣) الإسراء : ١٩.

الروم: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]

إن الله يأمر بإعطاء ذي القربى حقه من البرِّ والصِّلة، والمسكين: وهو الذي لا شيء له، أو له شيء لا يقوم بكفايته. وابن السبيل: وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره.

إن البر بهؤلاء والإحسانَ إليهم هو زَادُ الآخرة التي لا تنال إلا بمرضاة الله. ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ وقد عرفت أن زادَ الآخرة وسعيها هو سببُ الفلاح في الدنيا والآخرة. ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

ومن دلائل التكذيب بيوم الدين وآثاره عدمُ الحضِّ على طعام المسكين ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾[2]

وقد حاول المشركون أن يُبعدوا عن مجلس رسول الله ﷺ نفراً من الفقراء، أَنَفَةً منهم وكِبراً، فأبى رسولُ الله ﷺ فقالوا: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً.. وهم بذلك يُطْمِعُونَ رسول الله في إسلامهم. فأَبَى اللهُ إلاَّ أن يحدِّد الأمرَ بوحيه، ويثبت على الحق نبيَّه، ويبين خصائصَ هؤلاء وأولئك؛ ليكون في ذلك عِبرةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

روى مسلمٌ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه **قَالَ:** « **كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلاءِ؛ لا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ**

(١) الروم : ٣٨.
(٢) الماعون : ١-٣.

وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلالٌ وَرَجُلانِ – لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا – فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[1]))[2]

بل أمره الحقُّ – جَلَّ وَعَلاَ – بأن يصبر نَفْسه معهم بقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[3]

فكان النبي ﷺ إذا جَالَسَهم لم يقم عنهم حتى يكونوا هم الذين يبدءون بالقيام.

إن قيمة الناس في إيمانهم بالله وإخضاع هواهم لما جاء به النبي ﷺ، وإلاَّ فلن يبقى من حظوظ الدنيا شيئاً ولا من زينتها وزخرفها. إنها دارُ ابتلاء واختبار.

ومن حكمة الله أن جعل في الحياة غنيًّا وفقيراً، وقويًّا وضعيفاً.

في الحياة هذا وذاك، ابتلاءً منه – جل وعلا؛ ليرى ماذا يفعل المعطي بما في يده، وماذا يكون على حال المحروم من استقرار نفسي وخالص قصد. إنه الابتلاء.

ومن البعد والجحود أن يُظَنَّ أن هذا أُعْطِي إكراما أو هذا مُنع إهانَةً.

---

(١) الأنعام : من الآية ٥٢.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الكهف : ٢٨

إن الإكرام في التوفيق لطاعة الله، ومنها إكرامُ اليتيم، والحضُّ على طعام المسكين، والإهانة في البُعد عن مرضات الله، ومنها إساءة اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾[1]

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾[2]

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رَجُلاً قال: « يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ. فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ [3] وَلا يَزَالُ مَعَكَ مِنْ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ »[4]

أما المحسن فقد عرفت شأنه من كلام رسول الله ﷺ: «وَلا يَزَالُ مَعَكَ مِنْ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ »، وفيه من الحث على مداومة الإحسان إليهم ولو أساءوا.

---

(١) الفجر : ١٥-١٨.

(٢) البقرة : ٢١٥.

(٣) المَلُّ هو الرمادُ الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكِلَ الرماد الحار من الألم.

(٤) رواه مسلم.

وماذا يُطلب من جزاء بعد التأييد الإلهي واللطف الرباني.

روى مسلمٌ عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: « جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتْ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنْ النَّارِ »[1]

✿✿✿

(١) رواه مسلم.

obeikandl.com

سعي الآخرة

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾

من تمام العبودية لله ﷻ أن يخضع كل شئ لطاعته، فليس في هذا الدين ما لقيصر وما لله، وإنَّما فيه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (١)

وقد عرفت من قبل أن سعيَ الآخرة هو ما يتحقق به صلاح الدنيا، فلا ينعزل الإنسان عن الحياة؛ لكي يحقق لنفسه النجاة في الآخرة؛ وإنما يحقق الفوز في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا. إنه الدين الفطري الذي لا يُوزِّع الإنسان بين دنيا يرغبها وآخرة يَطْلبها، وإنما يجْعِل العمل الصالح في الدنيا هو سبيلُ النجاة في الآخرة، بشرط الإيمان بالله الذَّي خلق كُل شئ، ولولا الله ما ظفر الناس بنعمة الدنيا ولا بنعيم الآخرة. فمن حق الله على الناس أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ومن رحمته - إذا هم فعلوا ذلك - ألا يعذِّبَهم وأن يُدْخِلَهم الجنة، ومع أن الإيمان بالله هو اعتراف وَفِيٌّ بفضل الله الذي أعطى كلَّ شئ خَلْقَه ثم هدى، هو في الوقت نفسه الأساسُ لتحقيق أيَّ عمل صالح للناس جميعاً.

في حديثنا معك من قبل ذكرنا في سعي الآخرة التوحيد، والأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة غيره. وكذلك تحدثنا عن بر الوالدين. وحقِّ الأقربين

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

والمسكين وابن السبيل - وقد سبق الحديث عن البرّ وهو يتضمن الإنفاق - الآن يكون حديثنا عن ختام الآية ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [1]

ما المقصود بالتبذير في هذه الآية ؟ وقد دُعينا من قبل إلى الوفاء بالحقوق وأدَائها ؟ فهل إنفاقُ المال كلّه فيما أوجب الله يُعدُّ تبذيراً ؟.. وإذا كان كذلك فلماذا أنفق أبو بكر ماله كلّه وقدَّمه في غزوة من الغزوات دون أن ينكر الرسول ﷺ عليه ؟

وإذا كان الإنفاق - مهما بلغ في طاعة الله لا يُعد تبذيراً - فما التبذير إذن ؟ ولماذا جاء النهيُ عن التبذير بعد قوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2] ؟

قال ابنُ مسعود وابنُ عباس - رضي الله عنهما -: « التبذير إنفاقُ المال في غير حق »، وقال مجاهد: « لو أنفق الرجلُ ماله كلّه في حق ما كان مبذّراً. ولو أنفق مُدًّا في غير حق كان مبذّراً »، وقال الزجاج: «التبذير النفقة في غير طاعة الله، وكانت الجاهلية تنْحَر الإبل وتُبذر الأموال؛ تطلب بذلك الفخر والسُّمعة، فأمر الله ﷻ بالنفقة في وجهها فيما يُقَرِّب منه ».

---

(١) الإسراء : ٢٦، ٢٧.

(٢) الإسراء : من الآية ٢٦.

أخي المسلم:

لعلك تذكر ما ذكرتُ في أول الحديث إن من تمام العبودية لله أن تُخْضِعَ كل شئ لطاعته. والذي ينفق ماله في غير طاعة هو أخٌ للشيطان، كما قال الله - جل وعلا-: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (١)

والشيطان قد أخضع ما أعطاه الله من نِعمٍ لمعصية الله والإفساد في الأرض.. فكل مَن استعمل نعم الله في غير طاعة الله كان شيطاناً؛ لأنه ينفق في الباطل والشر ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ لا يؤدي حق النعمة ولا يعبُد بها الله الذي خلقه وأمر أن تُوضَع النعمة حيث أحبَّ ورضي.

ولقد جاء قوله تعالى بالنهي عن التبذير بعد قوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾(٢)؛ لكي يزيد الأمر تأكيداً، الإنفاق في الطاعة بالنهي عن الإنفاق في المعصية وهو التبذير. والناس إذا لم يَسلكوا طريق الحق أُخذوا إلى الضلال، والنِّعم في أيديهم إذا لم يخضعوها لطاعة الله سلكوا سبيل الشيطان.

والشيطان دائماً يَعدُ الإنسان الفقر ويأمره بالفحشاء: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الإسراء : من الآية ٢٧

(٢) الإسراء : من الآية ٢٦.

(٣) البقرة : ٢٦٨.

أخي القارئ:

اذكر نفسك يوم جئت إلى الحياة، كنت فرداً ولا تملك شيئاً، ولا تستطيع أن تعمل لنفسك شيئاً. فاحْذر أن يدخل إلى نفسك من أمور الحياة وزخارفها ما يتقدم على مرضات ربك؛ فإننا كما جئنا الحياة سنخرج منها ونعودُ إلى الله فُرَادى كما جئنا، مجرَّدين من كل ما في أيدينا مما اختبرنا به ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (١)

روى مسلمٌ عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا » (٢)

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: « يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا ؟ قَالَ: أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ. قُلْتَ: لِفُلانٍ كَذَا، وَلِفُلانٍ كَذَا » (٣)

اللهم اجعلنا أهلاً لطاعتك وشرف عبادتك، وأدْخلنا جنّتك بفضلك ورحمتك.

---

(١) الأنعام : ٩٤.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

سعي الآخرة

﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾

إن الله – جَلَّ وَعَلاَ – قد فتح باب الخير ويَسَّرَه للناس جميعاً غنيِّهم وفقيرهم، فكل إنسان يملك أن يتصدق وأن يبتغي وجه الله، بمعاونة الناس والسعي في مصالحهم، بإماطةِ الأذى عن الطريق، بالتبسُّمِ في وجهِ أخيك، بالكلمة الطيبة، بالكفِّ عن الأذى.. بإرشادك الناسَ إلى الحق. بالتزامك الصدق.. بنيتك الطيبة...

أبوابٌ من الخير ما أكثرَها فليس بالمال وحده تتصدق.. وإنما تتصدق من كل نعمة أنعمها الله عليك ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (١)

نحن مع سعي الآخرة، وأرجو أن تذكر دائماً ما قلناه من قبل: إن الدنيا لا يستقيم أمرها إلا بسعي الآخرة وعملها.

كنا في سعي الآخرة مع الآية الكريمة ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢)

عرفنا من قبل الحقَّ الواجب لهؤلاء، كما عرفنا حقيقة التبذير وأنه إنفاقُ المال في غير حق. ونحن الآن مع قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ

(١) إبراهيم : من الآية ٣٤.
(٢) الإسراء : ٢٦، ٢٧.

تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [1]

يقول ابنُ كثير: أي إذا سألك أقاربُك ومن أمرْناك بإعطائهم وليس عند شئ، وأعرضت عنهم لِفَقْدِ النفقة ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ أي: عِدْهم وعْداً بسهولة ولين. إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله.

نحن إذن مع القول الميسور. والقولُ الميسورُ في ذاته صدقة.

تأمل ما يقوله الصادق الأمين ﷺ **في صحيح البخاري عن عَدِيِّ بن حَاتم** رضي الله عنه **قال: قال رسول الله** ﷺ: « **اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ** » [2]

وفي رواية له عنه رضي الله عنه **قال: قال رسول الله** ﷺ: « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَسَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ. فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ** » [3]

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه **قال: قال رسول الله** ﷺ: « **كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ** »[4]

وروى مسلمٌ عن أبي ذرٍّ جُنْدُب بْنِ جُنَادَة رضي الله عنه **قال: قال النبي** ﷺ: « **لا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ** » [5]

---

(١) الإسراء : ٢٨.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه مسلم.

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « كُلُّ سُلامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِه فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » (١)

أخي القارئ:

قلت لك من قبل: ليس بالمال وحده تتصدق، وقد رأيتَ من الصادق الأمين ﷺ وهو يُعدد أبواباً من الخير.. رأيتَ مكانةَ الكلمة الطيبة.. فإذا فقدت المال الذي تتصدق به لتنال رضى ربِّك، فلن تفقد الكلمة الطيبة، بل إذا استطعت أن تُمسك عن الشر فإنها صدقة.

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ. فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّه، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: يَعْمَلُ بِيَدِه فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنْ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ » (٢)

أخي المسلم:

أبواب الخير بين يديك، فلا تقعدْ عن طلب الخير، واستبق إليه، فإنك عائدٌ إلى الله ومسئول بين يديه ﴿ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (٣)

واحذر أن ترائي الناس بعملك.. أو تَنْشُدَ بما تعمل إلاَّ وجهَ رَبِّك.

واحذر أن تمنَّ بما أُعطيتُ أو تؤذي بما تصدقت، فتبطل عملك وتحبط سعيك:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) البقرة : من الآية ١٤٨.

﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [1]

أما الذين ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله فذاك مَثَلُهم ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [2]

أخي المسلم:

ما أيسرَ الأعمال التي تُقرِّبك من الجنة، وما أيسر الأعمال التي تُوقع الناسَ في النَّار، فكُن راغباً في الخير، ساعياً في عمل البر، مؤمناً بالله في جميع الأحوال؛ فأنت لا تدري متى تُدعَى فتُجيب.

روى البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ » [3]

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

✿✿✿

(١) البقرة : ٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) البقرة : ٢٦٥.

(٣) رواه البخاري.

سعي الآخرة

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾

من سعي الآخرة أن يُوقَ الإنسانُ شُحَّ نفسه ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ ﴾[1]، ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾[2]

روى مسلم عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ »[3]

إن الشحَّ يرجع إلى علل نفسية قبل أن يكونَ مرضاً اجتماعيّا، وعلةُ العلل فيه عدمُ الثقة في الله والنظر إلى ما عنده.

إن الشحيح - وهو يضن بمالِ الله على عبادِ الله - يُعرِّض نفسَه لسخط الله قبل غضب الناس، وهو صائر - لا محالة - إلى العُسر الذي يخشاه وإلى المصير الذي لم يعملْ له: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾[4]

---

(١) الحشر : من الآية ٩.

(٢) الإسراء : من الآية ٢٩.

(٣) رواه مسلم.

(٤) الليل : ٨ - ١٠.

إنه يجني نتيجة بُخله وشُحه ألماً وحسرة ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)

إن مالاً يُعْطيه الله لعباده ويكافئهم عليه إذا أنفقوه في طاعته، ذاك في الحالين فضل من الله ونعمة، فضل في العطاء، وفضل في الجزاء ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٢)، ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ (٣)

روى مسلمٌ عن أنس ﷺ قال: « مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الإِسْلامِ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ. قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لا يَخْشَى الْفَاقَةَ » (٤)

الله أكبر. ذَاك أثر الجود في حياة الناس، وتلك نتائجه، لذا نرى الرسول ﷺ يقول: « لا حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ،

(١) محمد : ٣٨.
(٢) سبأ : ٣٩.
(٣) البقرة : من الآية ٢٧٢.
(٤) رواه مسلم.

وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا » [١]

ومعناه: لا ينبغي أن يُغْبَطَ أحدٌ إلاَّ بإحدى هاتين الخَصْلَتين.

في الحديث المتفق عليه عن جابر ﷺ قال: « ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئاً قطٌّ، فقال: لاَ » [٢]

وفي الحديث المتفق عليه – أيضاً – عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » [٣]

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله تعالى: أَنْفِقْ يا ابنَ آدم يُنْفَق عليك » [٤]

✿✿✿

قد يحرصُ الإنسانُ على المال فيمسك وهو يظن أنه يُمسك بماله، وما درى أنه يمسك بمال غيره. والرسول ﷺ ينبه إلى هذا فيقول فيما رواه البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ » [٥]

وروى الترمذي عن عائشة – رضي الله عنها –: « أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا بَقِيَ مِنْهَا ؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا. قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا » [٦]

ومعناه: تصدقوا بها إلا كتفَها فقال: بقيت لنا في الآخرة إلاَّ كتفَها.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه الترمذي.

وانظر عندما نبهنا مَنْ **كان خُلُقُهُ القُرآن** ﷺ إلى مضاعفة الحسنات عند الله، ماذا يقول في الحديث الذي **رواه البخاري عن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال: قال رسول الله** ﷺ: « **مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ – وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ – وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ** » [1]

أخي القارئ:

أبعد هذا يحقُّ لمسلم أن يضن بعطاء ؟

إن المجتمع الذي تنمو فيه هذه الأخلاق، ويعيش بهذه الصفات لهو أسعدُ المجتمعات البشرية وأكرمُها عند الله.

يقول ابن الخطاب رضي الله عنه: ((كنا نعد الإقراض على عهد رسول الله ﷺ بُخْلاً))

لماذا ؟ لأن هذا المجتمع الطُّهور يعيش بروح الإيثار ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ [2]، فصاحبُ الحاجة يجد وفاء حاجته في سماحة المؤمنين وتعاونهم على البر والتقوى. وهذا المجتمع هو المجتمع الذي يجد من الله العون والنصر والتأييد. وقد وجد السَّعة بعد الضيق، والقوة بعد الضعف، والأمن بعد الخوف، وَجَدَ المكانة الرفيعة والذكر الحسن.

﴿ **وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ**

(١) رواه البخاري.

(٢) الحشر : من الآية ٩.

تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [1]

خرجوا من حظوظ أنفسهم إلى مرضات ربهم، فلم يروا لأنفسهم إلا ما يراه الحقُّ لهم، فكان الله معهم، ومَنْ كان الله معه فلا يضل ولا يخزى.

اللهم ارزقنا خالص القَصْد لك وحُسنَ التوجه إليك.

❁❁❁

(١) الأنفال : ٢٦.

obeikandl.com

سعي الآخرة

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾

كل شئ في الكون يمضي بنظام وحكمة، لا يحيدُ عن غايته، ولا يخرج عن حدود وظيفته ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

والإنسانُ - وهو يتأمل ما في الكون من آيات - يجد في كل شئ عِظةً وعِبرة.. وهو إنْ أحْسَن التأملَ في الكون، وخشع قلبُه لآيات ربِّه اتسم سَعْيُه بالحِكمة، ووضع كل شئ في موضعه دون تفريط أو إفراط ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ (٢)

✿✿✿

والآية التي معنا وهي من سعي الآخرة التي قال الله عنها: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (٣)

الآيةُ تنهى عن البخل كما تنهى عن الإسراف ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ

(١) يس : ٤٠.
(٢) البقرة : من الآية ٢٦٩.
(٣) الإسراء : ١٩.

﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [1]

نهيٌ عن البخل ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي: لا تكن بخيلاً مَنُوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، ونهيٌ عن الإسراف ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك وتُخْرِجُ أكثر من دَخلك، فَتَقْعُدَ إن بخلتَ مَلُوماً يَلُومُك الناس، ويَذُمُّونك ويستغنون عنك، وإن أسرفت محسوراً؛ لأنك حين تبسط يدك فَوق طاقتك تقعد بلا شئ تُنفقه، فتكون كالحسير، أي كالدابة التي قد عجزت عن السير فتوقفت ضعفاً وعجزاً.

إن المال نِعمةٌ من الله يُختبر بها الإنسانُ كما يُختَبَر بغيرها، فهي تستوجب الشُّكر، ومِنْ شُكْرِ هذه النعمة أن توضَع في موضعها، فيما شرع الله وأمَر، والإنسان أمام هذه النعمة يملك من الصفات النفسية التي وهبها الله له ما يجعل المال خاضعاً ذَلُولاً.. وكلُّ شئ بين يديكَ قابل لأن تميل به إلى جانب الخير أو الشر..

فالنار يمكن أن تُطهي بها طعاماً ، ويمكن أن تدمِّر بلداً آمناً..

ويدك يمكنُ أن تواسيَ بها مكروباً وتُعينَ مُحتاجاً.. ويمكن أن تبسطها في الإسراف والفساد. وهكذت جميعُ جوارحك، بل جميع النِّعَم التي بين يديك.

وهناك أمور متنافرة يُقيم الانسجامَ بينها حسنُ التقدير والتدبير، ويرفع عداءها - إذا التقتَ جريانُ الأمر على سُنَّة الكون ومنطق الفطرة؛ فالماء والنار عدوَّان إذا التقيا مباشرة أفسدَ أحدُهما الآخر، وإنْ حِيل بينهما بحائل تعاون أحدُهما مع الآخر وقدَّمَا منفعةً مشتركة.

---

(١) الإسراء: ٢٩، ٣٠.

اعزل الماء عن النار بإناء تُصْلح النار ما حمل الإناء مع حسن الرعاية ووضع الأمر في موضعه من غير إسراف أو تقتير.

وإنْ أنْتَ أعملت الفكر في أمر الدين وجدت أنه يُقيم الانسجامَ - أولاً - في نفس الفرد، ثم يخرج به إلى الجماعة والأمة.

ولو عاش الإنسان بغير دين الحَقِّ لقتل نفسه بنفسه، وحطَّم بعضَه ببعض، إذ يختلط ماؤه بناره في غير حائل يصلح، فينتهي اختلاط الماءِ بالنار إلى الدمار والبوار، وذات الإنسان فيها من كل شئ شئ، فلا بُدَّ أن تُنظَّم بدين فطري يدرك - أولاً - طبيعة الإنسان، ثم يُقيم الانسجام في داخل هذه الطبيعة بعدل واعتدال.

ولا يمكن لأيّ أحدٍ أن يقدر على ذلك إلاَّ من خلق الإنسان وعلَّمه البيان.

من أقام الانسجام في هذا الكون العظيم هو الذي يُقيم الانسجام في طبيعة الإنسان. وقد كان.

فهذا دينه - الإسلام - يشهد بإتمام النعمة وقد رَضِيَهُ لخلقه ولَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمَ غَيرَهَ ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

✿✿✿

والآية التي معنا توضح منهج الإسلام في رعاية الإنسان والمحافظة عليه، في اعتدال فطري بَعيد عن الإفراط والتفريط. ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾(٢)

(١) آل عمران : ٨٥.

(٢) الإسراء : من الآية ٢٩.

إنه إفراط في الإمساك يصل إلى الشح والبخل.. وعلة في النفس الإنسانية تُعالجَ بمعرفة الله وخشيته، وفي المجتمع بإقامة فرائض هذا الدين؛ حتى لا يفلتَ من أداء الواجب بخيلٌ أو ضنين.

﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ تفريط يصل إلى الإسراف. والمسرف هو الذي ينفق فوق طاقته، لا بُدَّ أن يضطرب أمره، وأن يسألَ الناس سؤال سفيه لا يُحسن التدبير، وهو مسلك يبغضه الله ولا يرضاهُ.

روى مسلمٌ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا: فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ » (١)

ومن صفات عباد الرحمن ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢)

إن الحكمة هي ميزان كلِّ شئ. والناس - بما أعطاهم الله من نِعمَ - مختبَـرون ممتحَنون، وعلى أعمالهم وسلوكهم محاسبون مجزيون ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣)

اللهم اجعل هوانا تبعاً لما جاء به نبيك. (آمين)

❁❁❁

(١) رواه مسلم.

(٢) الفرقان : ٦٧.

(٣) الأنبياء : ٤٧.

سعي الآخرة

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾

إن الله خلق الإنسان، ورزقه من الطيبات، وفضَّله على كثير ممَّن خلق، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

كلُّ أمره محترم مصون. من دم أو عرضٍ أوْ مال.

وفي سبيل صيانة الإنسان وحمايته بعث الله الرسلَ جميعاً، وهم يدعون إلى عبادة الله وحده؛ تكريماً للإنسان من أن يَذِل أو يضل. ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢)

وفي سبيل صيانة الإنسان وحمايته حدد شرعُ الله الحقوق والواجبات ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾ (٣)

« إن لكم مَعالِمَ فانتهوا إلى مَعالِمِكُم »

لا مجاملة في حق، ولا شفاعة في حد « وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ، لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا » (٤)

---

(١) الإسراء : ٧٠.

(٢) الحج : من الآية ٣١.

(٣) الطَّلاق : من الآية ٣١.

(٤) رواه البخاري.

وفي سبيل صيانة الإنسان وحمايته جَاء قولُ رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ – أَوْ تَمْنَعُهُ – مِنْ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » (١)

✿✿✿

وفي سبيل المحافظة على الإنسان وحمايته جاء قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ (٢)

وقوله:﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (٣)

أود أن تذكر ما قلناه من قبل من أنَّ سعيَ الآخرة يستقيم به أمر الدنيا، ولا يمكن إصلاحُ الدنيا إلا بسعي الآخرة. والآية التي معنا هي من سعي الآخرة التي قال الله عنها: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (٤)

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الإسراء : ٣١.

(٣) الأنعام : ١٥١.

(٤) الإسراء : ١٩.

وأنت ترى ما يحققه النهيُ عن قتل الأولاد من فلاح وبر واستقامة وطهر ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١)

إن نور الإيمان قد بدد ظلماتِ الشرك، وطُهْرَ اليقين قد أزال رجس الباطل. وكم زين الشيطان لكثير من المشركين قتل أولادهم.. فباءوا بخزي الدنيا وعذاب الآخرة ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (٢)

إن الله خلق الخلق وهو يرزقهم ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٣)

يَرْزُقُ الآباء ويرزق الأبناء ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ (٤)، ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ (٥)

فلا تضيقُوا بهم صغاراً فالله يرزقهم وقد تُرزَقُون بسببهم. ولا تخافوا من الضيعة كباراً؛ فنحن نرزقكم وإياهم، ففي جميع الأحوال لا يحملنَّكُم ضيقُ حالٍ أن تجاوزا الحدود التي رسمها الله لكم وابتغوا عِنْد الله الرزق ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا

(١) الأنعام : من الآية ١٤٠.
(٢) الأنعام : ١٣٧.
(٣) هود : ٦.
(٤) الإسراء : من الآية ٣١.
(٥) الأنعام : من الآية ١٥١.

﴿ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

أيُّ رحمة يحققها هذا الدين في حياة الناس ؟ إنَّه أرحَمُ بالْوَلَدِ مِنْ والده حين ينهي الوالدَ عن قتله، وأرحمُ بالوالدين من ولدهما حين يأمُره بالإحسان إليهما.. وهل كانت رسالةُ محمد ﷺ إلاَّ رحمة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٢)

زحفت المدنية الحديثة بظلامها على كثير من الديار الإسلامية، وحوَّلت -بأساليبَ متنوعة- كثيراً من الكلمات إلى ضرورات، وربطت ذلك بأمر النسل وتحديده.

ومع أن المجال في لقاءنا معك ليس مجال الحديث عن تحديد النسل أو تنظيمه كما يقال، إلا أننا نرى من الواجب أن ننبه على أمور لا بُدَّ منها:

أولاً: نحن أُمةٌ دُعينا إلى كثرة النسل من سيد الخلق ﷺ « **تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » (٣) أمةٌ ترتبط برسالةٍ ذات واجباتٍ. أُمةٌ مجاهدة ممتدة، وهي تنظم شئونها وأحوالها على هذا الأصل.

ثانياً: هذه الأمة تبصر واقعها دائماً على ضوء شريعتها.. لكن هذه الأمةَ - في كثير من الديار الإسلامية - قد بَعُدَت عن العمل بهذه الشريعة، فأُدخلت عليها أمورٌ وأمورٌ لم تُبْصرها في ضوء شريعتها ومقتضيات رسالتها.. وأخطر ما دخل عليها هو أسلوب الوأد الخفي التي أخذ ألواناً متعددة اختلط فيها أمرُ الضرورات بغيره، وتعددت الدوافع عند الناس، ومن الحقِّ أن نقول: إن هذه الأمة لا يصونها من الوقوع

---

(١) العنكبوت : ٦٠.

(٢) الأنبياء : ١٠٧.

(٣) رواه أحمد.

فيما وقع فيه المشركون - من قتل الأولاد - إلا أن تُبصر جميعَ أمورها في ضوء شريعتها، وأن تتحرك في جميع جزئيات حياتها بوحي من دينها.. وعندئذ سيكون تصورُنا لكثير من القضايا على صورة مباينة لما يريده الأعداء لنا، من الانتقاص الدائم في كل أمرنا.

ثالثاً: نحن المسلمين - حيث كُنَّا - إذا بَعُدْنا عن حِمى الله - بطاعته والاستقامة على أمره - فلن نجد من دون الله وليًّا ولا نصيراً.

فواجبٌ أن نأخذ أنفسنا في كل مكان بأمر هذا الدين، وأن نعتصم بكتاب الله، منفذين أمره، مجتنبين نهيه، وأن يكون قدوتنا فيما نأخذ وندع رسولُ الله ﷺ ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (١)

وعندئذ سيبطل كيد الأعداء فينا، ولا نقبل إلاَّ ما يرضاه الله ورسوله ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (٢)

اللهم اجعل هوانا تبعاً لما جاء به نبينا محمد ﷺ.

❁❁❁

(١) الحشر : من الآية ٧.

(٢) الأحزاب : من الآية ٣٦.

سعي الآخرة

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ ﴾

إن المجتمع الإسلاميَّ - وهو يُنفِّذ تعاليم دينه - مجتمعٌ طهورٌ، لا يقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن.. ولا يقبل أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

إن إيمان المجتمع بالله يفرض عليه طاعة الله ورسوله ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

ولقد ارتبط تاريخُ الأمة الإسلامية بهذه الطاعة، فَعَزَّت وعزَّ جانبها كلمَّا اعتصمت بآداب دِينها وتخلقت بخُلق نبيها ﷺ. وقد كان خُلُقُهُ القُرآن، يرضى برضاه ويسخط بسخطه.

ونحن نعيش الآن مع هذه الآية من سورة الإسراء ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

إنها آية ذُكرت في سعي الآخرة.. وقد علمت أن أمر الدنيا لا يصلح إلا بسعي الآخرة. إنها تنهى عن الزنا بأسلوب يحقق البُعد عن مقدماته. ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ أي: لا تفعلوا ما يقرب منه فإنه معصية فاضحة القبح، وإنه بئس الطريق الموصل إلى النار.

---

(١) الأحزاب : ٣٦

(٢) الإسراء : ٣٢.

روى الإمام أحمد عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: « إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا. فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْه فَزَجَرُوهُ. قَالُوا: مَهْ مَهْ. فَقَالَ: ادْنُه. فَدَنَا منْهُ قَرِيبًا. قَالَ: فَجَلَسَ. قَالَ: أَتُحبُّهُ لأُمِّكَ ؟ قَالَ: لا وَاللَّه، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتُحبُّهُ لابْنَتِكَ. قَالَ: لا وَاللَّه، يَا رَسُولَ اللَّه. جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتُحبُّهُ لأُخْتِكَ. قَالَ: لا وَاللَّه. جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتُحبُّهُ لعَمَّتِكَ ؟ قَالَ: لا وَاللَّه. جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحبُّونَهُ لعَمَّاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتُحبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ قَالَ: لا وَاللَّه. جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ. قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْه، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ. فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ »[1]

أخي القارئ الكريم:

تأمل أسلوبَ الرفق والرحمة في معالجة أمراض الناس وعللهم.

بل تأمل هَدْيَ مَن **كان خُلُقُهُ القُرآن** ﷺ في النهي عن المنكر بالحكمة والحجة والإقناع الذي يملك العقل والقلب، ولا يدع مجالاً للمراوغة أو المراء.. ثم اليدَ الرحيمة الحانية على النفس الضالة، يهيِّئ لها أسبابَ هدايتها، ويدعو الله أن ييسر لها طريق الهداية والطهر ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾[2]

قلتُ: إن المجتمع الإسلامي - وهو يتبع أمور دينه - مجتمعٌ نظيف طاهر، تُصان فيه الحـُرمات، وتراعى الكرامة والعِفَّة.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) الكهف : من الآية ١٧.

ولا تقع المنكرات إلا حيث يخفت نورُ الإيمان في القلوب ويُنْزَعُ من النفوس.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً - يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا - وَهُوَ مُؤْمِنٌ » (١)

وكان عبدُ الله بن عباس - رضي الله عنهما - يَدْعُو غلمانه غلاماً غُلاماً، فيقول: « **ألا أزوجك ؟ ما من عبد يزني إلاَّ نزع الله منه نورَ الإيمان** »

إن العقيدة الصادقة تعصم صاحبها وتُبْعدُه عن أسباب الفساد والمنكر. والنفس راغبة طامعة ولا تتحقَّقُ نجاتها إلا بإرادة وعزيمة وخشية. إرادة تُخْضع هوى النفس لمرضاتِ الله، وعزيمةٍ تعتصم بالصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، وخشية تجعل الإنسان يوقن - تماماً - أن الله يعلم عمله، فما يُغلق على أعين لا يخفى على الله. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ ﴾ (٢)، وعندما يعتصم الإنسانُ بربِّه يجدُ النجاة وحُسن الجزاء ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١ ﴾ (٣)

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّه يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَة اللَّه، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّه اجْتَمَعَا عَلَيْه وَتَفَرَّقَا عَلَيْه، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) آل عمران : ٥.

(٣) آل عمران : من الآية ١٠١.

امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ؛ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » (١)

وفي الحديث المتفق عليه عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ » (٢)

اللهم طهر قلوبنا من النفاق، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة.

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

✿✿✿

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

obeikandl.com

سعي الآخرة

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

جاء الناس إلى الحياة بأمر ربهم لكي يُختبروا ويُمتحنوا. وهم كما جاءوا إليها سيخرجون منها ليجدوا نتيجة امتحانهم وجزاءَ أعمالهم.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[1]، ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾[2]

ومن رحمة الله بالناس أن جعلَ عَمَلَهم الصالحَ في الدنيا سببلَ سعادتهم في الآخرة، وجعل الإيمان به أساسَ كلِّ خيرٍ وبرٍّ، وبهذا تكون التكاليف لمصلحة الإنسان في كل مراحل سيره، عَاجلِ أمرِه وآجلِه ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧ ﴾[3]

والآية التي نعيش معها الآن هي من سَعْي الآخرة التي قال الله عنها: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[4]

---

(١) الزلزلة : ٧، ٨.

(٢) الملك : ١، ٢.

(٣) النحل : ٩٧.

(٤) الإسراء : ١٩.

ولا يكـــون صلاحُ الدنيـــا إلا بسعْي الآخرة وعَمَلِها ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾ (١)

والآية التي نتحدث عنهـــا ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (٢) نهي عن القتل بدون حق شرعي، لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الكُفر بعد الإيمان، أو الزنا بعد الإحصان، أو قتل نفس مَعْصومةٍ عَمْداً. إنَّ هؤلاء قتلوا وأفسدوا في الأرض والله لا يحب الفساد.

ولا فساد أعظم من كُفرٍ بعد إيمان، أو زنىً بعد إحصان، أو قَتْل نفس معصومة عمداً ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٣)

﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أي: استنقذها من هَلَكةٍ، كما رُوي عن ابن مسعود ومجاهد، وقال الحسن: من أحياها من غَرَقٍ أو حَرْق أو هَلاَك.

وفي رواية عكرمة عن ابن عباس: « **من شَدَّ عَضُدَ نَبِيٍّ أو إمام عادل، فكأنما أحيا الناس جميعاً** »

وروايةُ عكرمة عن ابن عباس جديرة بحسن النظر والتأمل فأيُّ حياةٍ أعظمُ من عدل يسود وحقٌ يُسيطر !

---

(١) المؤمنون : ٦٠، ٦١.

(٢) الإسراء : من الآية ٣٣.

(٣) المائدة : من الآية ٣٢.

إنها الحياة، الحياةُ بكلِّ ما تحمل الكلمةُ من معنى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (١)

وهل تصان الدماء إلا بحكم عَادل ؟ وهل تحفظ الحرماتُ إلا بشرع الله ؟..

فتحقيق ذلك إذن تحقيق للحياة ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾.

إنه دين الرحمة ينشدها للناس جميعا، ويطلبها في كلِّ شئ « فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ (٢) أَجْرٌ » (٣)

ولذا كان عقاب مَن لا يرحم الناس - فينال من دمائهم أو أعراضهم أو أموالهم - عقابا يتفق مع جريمته؛ حتى يطهر المجتمع من الفساد، ويَنْعم الناس بالأمن.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٤)

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (٥)

---

(١) الأنعام : من الآية ١٢٢

(٢) أَيْ كُلّ كَبِد حَيَّة، وَالْمُرَاد رُطُوبَة الْحَيَاة، أَوْ لأَنَّ الرُّطُوبَة لازِمَة لِلْحَيَاةِ فَهُوَ كِنَايَة.

(٣) متفق عليه.

(٤) آل عمران : ٢١، ٢٢.

(٥) النساء : ٩٣.

روى البخـــاري عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: « لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا » (١)

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال: « إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الأُمُورِ الَّتِي لا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ » (٢)

وروى البخاري عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: « أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ. أَوْ قَالَ وَشَهَادَةُ الزُّورِ » (٣)

أخي القارئ الكريم:

لقد قرأت من آيات الله ما قرأت، ورأيتَ بيان رسول الله ﷺ، ومن هذا تدرك مدى ما يقدمه هذا الدين من أسباب الأمن وصيانة الحرمات. إنَّه ينشد العدل في جميع صوره؛ تكريماً للإنسان وصيانةً لحرمته ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (٤)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.
(٤) النساء : ١٣٥.

﴿ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [1]

وترى الصادق الأمين ﷺ ينهى عن كل الأسباب التي توغرُ الصَّدور أو تقطع الروابط لتتحقق للناس أسبابُ المودة والألفة والحبِّ والتعاون.

روى مسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ » [2]

وقال ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ. وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ » [3]

اللهم اجعل هوانا تبعاً لما جاء به نبيك، وارزقنا خالص القَصْد لك وحُسْن التوجه إليك.

❁❁❁

(١) المائدة : ٨.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

obeikandl.com

سعي الآخرة

العدل في القصاص والدعوة إلى العفو

أيها القارئ الكريم:

إن الإنسان لا يعيش وحده، بل يحيا في مجتمع تتداخل مصالحُه.. وقد جعلَ الله من أسباب التعارف بين الناس تفاوت درجاتهم وتباين أعمالهم، بحيث يحتاج كلُّ واحد منهم إلى أخيه فيما يُحسنه.. فيأتي التعارف بدافع من الضرورة والحاجة، .فتتحقق حكمة التعارف بين الناس بأسلوب عملي، ويقوم التعاون بدوافع أصيلة ترتبط بحاجات الناس ومصالحِهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [1]

وإذا كانت مصالحُ الناس مُتداخلة. والإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده وهو ينـــزع بطبعه - بل بالضرورة - إلى مجتمع يعيش فيه، فلا بُدَّ من شَرْع عادل يكون حَكَماً بين الناس، ويكون الناسُ جميعاً أمامه سواء. ولو تُرك هذا الشرعُ للناس يضعونه لأنفسهم لوقع الظلم بينهم ولرأيت ضعف الإنسان وقصوره فيما يضع..

---

(١) الزخرف : ٣٢.

وإذا كنت تريد شرعاً عادلاً بين الناس جميعاً. فلن يكون ذلك من وَضْع البشر على الإطلاق؛ ذلك أن نزعات الهوى والتعصب وحبَّ السيطرة والغلبة - مع قِلة العلم وعدمِ الإحاطة - سيؤثر ذلك كلُّه فيما يضعه البشر من قوانين.

إن الشرع الذي يعدل بين الناس جميعاً، لا يقدر عليه إلا من وسع علمه كل شئ، من ﴿ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ (١)، من ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (٢) إن الشرع العادل للعالمين لا بُدَّ أن يكون من الله ربِّ العالمين.

ومن رحمة الله بعباده أن أرسل الرسل وأنزل معهم الكتاب؛ ليقوم الناسُ بالقسط ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (٣)، بل من رحمته بالإنسانية جميعاً أن أرسل محمداً ﷺ بالرسالة الخاتمة، وأنزل الكتاب، وضَمِنَ حفظه؛ ليظل ميزان العدل موفوراً بين الناس، متحققاً قائماً بينهم كما تقوم الشمس في الكون.. وإذا كانت للشمس حقيقة قائمة ساطعة يُشار إليها بالبنان فإن لحقيقة الدين كتاباً قائماً، مشرقاً، مُبيناً، مباركاً، محفوظاً، هو القرآن ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (٤)

وقد ذكرنا النهي عن قَتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بسبب شرعي، ونحن الآن.. مع حالة القتل بعد وقوعها ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ

(١) الأنعام : من الآية ١٤.
(٢) البقرة : من الآية ٢٥٥.
(٣) الحديد : من الآية ٢٥.
(٤) الإسراء : ٣٣.

سُلْطَٰنًا ﴾ وهذا السلطان للولي قد بينه الله في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١)

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢)

إن الإنسان – وهو في أشد حالات التأثر بما ينالُه من ظلم – إزاء ضوابط لا يمكنُ أن يتعداها أو يتجاوز حدودها ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ ﴾ (٣)، ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ ﴾ (٤)

الله أكبر.. ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٥)

---

(١) الإسراء : ١٧٨، ١٧٩.

(٢) الإسراء : ٤١، ٤٢.

(٣) النحل : من الآية ١٢٦.

(٤) الإسراء : من الآية ٣٣.

(٥) الشورى : ٤٠.

انظُرْ كيف يُقرر الشرعُ الحقَّ لصاحبه، ويفتح المجال لأولي العزم أن يَسْمُو بهم إيمانهم إلى العفو؛ طلباً لمرضات الله الذي يجازي كلَّ نفس بما كسبت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (١)

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٣)

إنه الدين الذي يحقق العدل في كل شئ، ولا يطالب الناس بما لا يطيقون، يحقق العدل أولاً في داخل الإنسان، بين مطالب جسده وفضائل روحه.. ويحقق العدل في واقع المجتمع بما يأمر من قصاصٍ وإقامة حدود؛ لترتدع النفوس عن الشر، ويأمن الناس بإقامة العدل. وتأتي ساعة الفصل بين يدي الله؛ تحقيقاً للعدل المطلق ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ (٤)

بهذا التصور الكامل لحقيقة الحياة ونتيجتها وخضوعها لله وحده تطيب نفس المؤمن وهو يعمل في دار الابتلاء، واثقاً مطمئناً أن العدل إن فات هنا - لقصور الناس وأهوائهم - فلن يفوت هناك بين يدي الله الذي لا يخفى عليه خافية ﴿ وَوُضِعَ

(١) البقرة : من الآية ٢٨٦

(٢) الأنبياء : ٤٧

(٣) إبراهيم : ٤٢.

(٤) الزلزلة : ٧، ٨.

ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [1]

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » [2]

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

✿✿✿

(١) الكهف : ٤٩.

(٢) رواه البخاري.

obeikandl.com

سعي الآخرة

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

أيها القارئ الكريم:

في المجتمع الإنساني تقومُ علاقاتٌ بين الناس بدوافعَ متعددة، تمتد أو تنقطع بامتداد الضرورة أو انقطاع الحاجة، علاقات تقوم بدوافع المصالح والحاجات الدنيوية، وتتأثر - دائماً - بتغير الظروف وتباين الأحوال.

ولم أر روابط تمتد ولا تنقطع، ويبقى التعاطف والتراحم - في جميع الأحوال- إلا الروابط القائمة على العقيدة، المستَندةُ إلى الإيمان بالله ﷻ.

في صحيح مسلم عن النعمان بن البشير - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » (١)

تواد، وتراحم، وتعاطف.. يفرضه الإيمان وتحققه العقيدة. ترابط حَيٌّ كترابط الجسد الذي يتداعى كل شئ فيه لما يُصيبُ أيَّ جزءٍ منه.

وما أعظم التشبيهَ بالجسد، وما أدَلَّ هذا التشبيه على نور النبوة وهي تبصر كلّ شئ بنور ربِّها ﷺ ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) النساء : من الآية ١١٣

إنَّ الجسدَ حين يُصَابُ جزء منه لا يتألم تألماً سلبيًّا ويقنع بالبكاء على الجزء المصاب، وإنما يتألم تألماً إيجابيًّا يُرى في تداعيه إلى نجدة الجزء المصاب؛ حتى يعود معافىً بإذن ربِّه كما كان.

كذلك حال المؤمنين بعضِهم مع بعض. إنْ مات والدُ اليتيم فكلُّهم له راعٍ - يحافظون عليه ويَمُدُّونه بما يحتاج إليه، يَشُدُّون أزره، ويحفظون ماله.

في مجتمع العقيدة والإيمان لا يفقد الإنسانُ عاطفة الأهل وإن فقد أهْلَه، ولا يبيت طاوياً وإن فقد ماله.

وتأمل الآية التي نعيش في رحابها ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [1]

إنه مجتمع يساند الضعيف حتى يقوى، ويَرْعَى مال اليتيم حتى يأنسَ منه رُشداً.

الآية التي معنا من سعي الآخرة - وقد عرفت أن سعيَ الآخرة هو الأساسُ الذي يستقيم عليه أمر الدنيا - إنها تنهى عن أكل مالِ اليتيم بالنهي عن قربانه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ﴾ مبالغةً في النهي عن التعرض له.

فإذا ما اجْتَرأ أحدٌ على ذلك وامتدت يدُه ظُلما إلى مال اليتيم، فقد استحق الجزاءَ من الله عقاباً في نفسه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [2] وتحذيراً بما قد يقع في

(١) الإسراء : ٣٤.

(٢) النساء : ١٠.

ذريته من بعده ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾[1]

إنه العقاب الشديد والتحذير البليغ لكل نفس طامعة طالما تمتد إلى الضعيف أو تحتالُ عليه. بل إنه الفوز والنجاة لكلّ نفس عفيفة مؤمنةٍ تكفُل اليتيم وترعى حقّه.

وتعال بنا نحيا مع مَنْ كان خُلُقُهُ القُرآن ﷺ؛ لنرى ماذا يقول وهو الصادقُ الأمين الذي لا ينطق عن الهوى.

روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا. وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا »[2]

وروى ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ [3] حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ » [4]

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ » [5]

* * *

(١) النساء : ٩.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أُحَرِّج : أُلحِقُ الحرجَ – وهو الإثم – بمن ضيع حَقَّهُمَا، وأحذّر من ذَلَك تحذيراً بليغاً، وأزْجُرُ عَنْه زجْراً أكيداً.

(٤) رواه ابن ماجة.

(٥) متفق عليه.

أخي المسلم:

لقد تُلِيَتْ عليك آيات الله ورأيت البيانَ من حديث رسول الله ﷺ عن كفالة اليتيم ورعاية أمره والمحافظة على ماله. ومنه تدرك مدى العناية بالضعفاء الذين قَدْ لا يُرْزق الناس إلا بسببهم.

إن المجتمع الإسلامي الذي يؤمن بالله وكلماته مسئول عن ذلك. ولذا جَاء النهي في الآية التي معنا على صيغة الجمع ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ [1]؛ ليكون المجتمع الإسلامي كلُّه مسئولاً عن اليتيم ورعايته، ومعنى قوله ﴿ **إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ أي: لا تقربوا ماله إلا بما فيه صلاحُهُ وتثميرُه.

وانظر إلى العمل الذي يُؤدَّى في دنيا الناس برًّا، كيف يرفع قدر صاحبه في الجنة حتى يقترب من رسول الله ﷺ اقتراب السَّبابة والوسطة « **وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا. وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا** »[2]

ذاك سعي الآخرة وهذا عملها هو لدنيا الناس تراحماً وبرًّا، ولآخرهم - برحمة الله - نجاة وفوزاً.

ما أعظم هذا الدين وما أجلَّ فطرته ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾** ﴾ [3]

اللهم أحينا به، وأمتنا به، وارزقنا خالص القصد لك وحسن التوكل عليك.

✿✿✿

(١) الإسراء : من الآية ٣٤.

(٢) رواه البخاري.

(٣) آل عمران : ٨٥.

سعي الآخرة

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾

إن المؤمنَ طَاهرُ القلب نظيفُ اليد، يخشى الله ويرجُو اليوم الآخر، يخشاه في السرِّ والعلن. ويراقبه في جميع أحواله. وهو يعلم أن الله يعلم السرَّ وأخفى.

فهو إن خاطب الناس صدق، وإن تعامل معهم - بكيل أو ميزان - عدل. و لم يكن صدقه وعدله بدافع من تقديرٍ لأمر الدنيا، بعيداً عن النظر إلى الآخرة. إنه يصدق لأن الله أمر بالصدق في جميع الأحوال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [1]، ويعدل؛ لأن الله أمر بالعدل في كل حال ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [2]، ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [3]

الآية التي معنا الآن ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ [4]

---

(١) التوبة : ١١٩.

(٢) النحل : ٩٠.

(٣) النساء : ٥٨.

(٤) الإسراء : من الآية ٣٥

وهذه الآية كما عرفتَ مِنْ قبل من سَعْي الآخرة. أي: من الأعمال التي يتقرب بها الإنسان إلى الله ﷻ لينال رحمته ورضاه.. والدنيا لا يستقيم حالها إلا بسعي الآخرة وعملها، ولن يَصعُبَ عليك فهمُ الآية ولا دَلالتُها ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ من غير تطفيف ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ (١)

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ (٢)

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ زِنُوا بالعدل بلا اعوجاج ولا انحراف ولا اضطراب. ذلك خير لكم في دنياكم وآخرتكم.

إن هذه الاستقامة في طاعة الله، والعدلَ في الأخذ والعطاء يُحقق لكم الخير في الدنيا والثوابَ وحُسنَ العاقبة في الآخرة ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ۝٣٥ ﴾ (٣) أي: مآلاً ومُنْقَلَباً في آخرتكم.

إن هذين الأمرين: المكيال، والميزانَ هَلَك بهما أقوامٌ من قبل. نُصِحُوا فلم يستجيبوا، وتَمادَوْا في ظُلم الناس والفساد في الأرض، فأهلكَهم الله ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا

(١) الأعراف : من الآية ٨٥.
(٢) المطففين : ١-٦.
(٣) الإسراء : من الآية ٣٥.

تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

نعم، لم يستجيبوا لهذا النصح، ولم يأبهوا للتذكير والوعيد.. فجاء أمر الله بإهلاكهم، ونجّا الله شعيباً والذين آمنوا معه.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ (٢)

❁❁❁

﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴾

إن المؤمن حين يصدق ويعدل إنما يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله، وقد رأيتَ الأثر الذي يحققه العدل في الأخذ والعطاء. وقد عرف الناس أثر ذلك في دنياهم، فَرأيت التاجر - الذي ينشد إقبالَ الناس عليه - يتخذ من الصدق سبيلَه، لتحقيق الثقة في نفوسهم، وهو يرجو أن تنمو تجارتُه، فلا يبخس الناس أشياءهم.

لكن هذه الصفات - من طهارة النفس، ونظافة اليد، والوفاء بالعهد، وإيفاء الكيل، والاستقامة في الوزن - هذه الصفات تقوم في الإسلام على أساس الطاعة لله أولاً.. قبل أن تُدرَّ ربحاً أو تطردَ خسارة.

---

(١) هود : ٨٤ - ٨٦.

(٢) هود : ٩٤، ٩٥.

والمؤمن عندما يؤدي عملاً أو يدع أمراً إنما يفعل ذلك استجابة لأمر الله ورغبة فيما عنده. إنه يدع الحرام وهو قادر عليه؛ مخافة الله.

وهذا التماسك الفطري - بين الصلة بالخالق والبر بالمخلوق - تفقده جميع المذاهب التي تقوم على المنفعة فحسب، وترى أنَّ من أسبابها إبداءَ الاستقامة أمام الناس والصدق معهم.

قد يشتبه الأمر على الناس وهم يرون دَماثة الخُلُق عند إنسان لا يؤمن بالله ولا يؤدي فرائضه، فيظنون أن هذا قد أحرز من الفضائل ما يجعلهم يركنون إليه ويقبلون عليه.

تاجر يعلم أن الصدق سبيلُ الربح وهو محمود، يُقبل الناس عليه فيصدق، ويعلم أن الكَذب والغش سبيلُ الإفلاس وهو مذموم، ينصرف الناس عنه فلا يكذب. ما غاية الصدق عنده ؟ وما غاية تجنب الكذب ؟ إنها المنفعة لا غير. منفعةُ الجسد ومتعةُ الحياة. ولكن ما غاية الصدق عند المؤمن الذي يخشى ربَّه ؟

أن يُرْضِيَ ربَّه ولو أدى الصدق إلى زوال منفعة أو استجلاب مضرة، وهو واثق في عون الله يعرف النتائج والعواقب. يتجنب الكذب؛ لأن الكذب يغضب الله ولو جَرَّ عليه ربحاً وافراً ومالاً كثيراً.

الغاية هنا تثبت الفضيلة وتتسع في تطبيقها ولا تربطها بمنفعة قد تزول، فتزول الصفةُ معها. الفضائل عند المؤمنين ترتبط بأصل ثابت لا بمنافع زائلة. أما عند غيرهم فهي كنبتة اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

أخي المسلم:

أردت أن أوضح هذا المعنى ؛ حتى لا ننخدع في الصفات عند غير المؤمنين، وأن نَرْجُوَ - دائماً - بأعمالنا وجه الله وحده؛ لننال بذلك عِزَّ الدنيا وسعادة الآخرة.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [1]

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار..

❁❁❁

(١) الإسراء: ١٩.

obeikandl.com

سعي الآخرة

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

إن الله قد أنزل الكتابَ على نبيِّه ليتدبر الناسُ ما فيه؛ وليُصَحِّحُوا دائماً واقعهم به ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

الآية التي نعيش معها الآن ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢)

لا تَتْبَع ما لاَ علم لك به من قول أو فعل، ويندرج في ذلك شهادةُ الزور والكذبُ، وأن تقول للناس وفي الناس ما لا عِلْمَ لك به، وترميهم بالباطل.

قال قتادة: لا تقلْ رأيتُ ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلُك عن ذلك كلِّه.

نعم.. إنك ستسأل يوم القيامة هل سمعت حقًّا، أو نظرت صحيحاً، أو علمت حقًّا، وتُجَازَى على ذلك. كُلُّ أولئك - من السمع، والبصر، والفؤاد - كان عنه مسئولاً؛ أي: سيُسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسألُ عنه وعمَّا عمل فيها. وفي هذا زجرٌ عن النظر إلى ما لا يحل، والاستماع إلى ما يحرم، والعزم على ما لا يجوز.

الله أكبر. انظر إلى الأدب الرباني الذي يؤدب الله به عباده، فيَعْصِمُ ألسنتهم من الكذب، وأعينهم من الخيانة، وقلوبهم من النفاق.

---

(١) ص : ٢٩

(٢) الإسراء : ٣٦

وتعال بنا نرى البيان من سُنَّة رسول الله ﷺ.

إن أخطر هذه الجوارح هو اللسان الذي يتسلط على الناس بالقيل والقال. فيُسْمِعهُم وينقل عنهم. كما ينقل عن جوارح الإنسان نفسه صادقاً أو كاذباً. إنه اللسان الذي يُري العين ما لم تر، ويتحدث عنها كاذباً، ويُسمِعُ الأذن ما لم تسمَعْ ويحدث عنها كاذباً. ويقول عن القلب ما ليس فيه.. إذن هو أخطرُ الجوارح « وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ » [(١)]

روى الترمذي عن عقبة بن عامر ﵁ قال: يا رسول الله ما النجاة ؟ قال: « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » [(٢)]

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري ﵁ عن النبي ﷺ قال: « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ [(٣)] اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا » [(٤)]

وروى أبو داود عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: « لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمُشُونَ [(٥)] وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ » [(٦)]

قَالَ الطِّيبِيُّ: « لَمَّا كَانَ خَمْشُ الْوَجْهِ وَالصَّدْرِ مِنْ صِفَاتِ النِّسَاءِ النَّائِحَاتِ، جَعَلَهُمَا جَزَاءَ مَنْ يَغْتَابُ وَيَفْرِي فِي أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ؛ إِشْعَارًا بِأَنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنْ

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) أي : تتذلل وتتواضع له، من قولهم: كَفَّرَ الْيَهُودِيُّ إِذَا خَضَعَ مُطَأْطِئًا رَأْسَهُ وَانْحَنَى لِتَعْظِيمِ صَاحِبِهِ.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) أي يخدشون.
(٦) رواه أبو داود.

صِفَات الرِّجَال، بَلْ هُمَا مِنْ صِفَات النِّسَاء، فِي أَقْبَح حَالَة، وَأَشْوَه صُورَة » [1]

وروى مسلمٌ عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ » [2] أي: افتريت عليه الكذب.

وإذا كُنَّا قد وقفنا عند نهي المتكلم أن لا يتكلم بغير حق وأن يحفظ لسانه، فعلى السامع أن يحفظ سمعه من لغو الحديث وباطله **﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾** [3]

ومن صفات المؤمنين في سورة المؤمنون **﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾** [4]، **﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ۝٣٦ ﴾** [5]

روى الترمذي عن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: « مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ، رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » [6]

وانظر إلى مَن **كان خُلُقُهُ القُرآن** ﷺ ماذا يقول ؟

روى أبو داود والترمذي عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا

---

(١) عون المعبود.

(٢) رواه مسلم.

(٣) القصص : من الآية ٥٥

(٤) المؤمنون : ٣

(٥) الإسراء : من الآية ٣٦.

(٦) رواه الترمذي.

يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ » (١)

أخي المسلم:

إن أخطر شئ في أمر الإنسان هو اللسان، إنه يُرى العين مَا لَمْ تر.. يتحدث عن القلب بما ليس فيه، ولذا فإن عِصْمَتَه عِصْمَةٌ للجوارح.

روى البخاري عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال النبي ﷺ: « إِنَّ مِنْ أَفْرَى الْفِرَى (٢) أَنْ يُرِيَ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَ » (٣) ومعناه: يقول: رأيتُ فيما لم يَرَه.

وروى البخاريُّ – أيضاً – عن محمد بن زيد أن ناساً قالوا لجدِّه عبد الله ابن عمرو – رضي الله عنهما –: « إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى سُلْطَانِنَا، فَنَقُولُ لَهُمْ خِلافَ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ. قَالَ: كُنَّا نَعُدُّهَا نِفَاقًا » (٤)

وفي رواية ابن ماجة: «كُنَّا نَعُدُّ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ النِّفَاقَ »(٥)

تلك بلوى اللسان.

وروى البخاريُّ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: « مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ، كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ. وَمَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ، صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ (٦) يَوْمَ الْقِيَامَةِ،

(١) رواه أبو داود والترمذي.
(٢) الْفِرْيَة الْكِذْبَة الْعَظِيمَة الَّتِي يُتَعَجَّب مِنْهَا، والمعنى : أَعْظَم الْكِذْبَات.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه ابن ماجة.
(٥) رواه البخاري.
(٦) الآنك : الرصاص المذاب.

وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ، وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ »[1]

أخي القارئ:

لا زلت معك عند الآية الكريمة من سعي الآخرة ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴿٣٦﴾** ﴾[2]

أخي المسلم:

قد عرفت أن الذي يُعَبِّر عن الجوارح هو اللسان ولذا فإن أعضاء الجسد تقول له كلّ يوم. « **اتَّقِ اللَّهَ فِينَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا** »[3]

فلنمسك ألسنتنا إلا عن ذكر الله وقولٍ يرضاه، فإن كلَّ ما يقوله الإنسان مسجل مكتوب ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾** ﴾[4]

كم من محصنةٍ غافلةٍ مؤمنةٍ رماها اللسانُ إفكاً وزوراً، وكم من قلوب مؤتلفة فرَّق اللسانُ جمعها عندما سعى بينها، وكم من باطل أقرَّه وحقٌّ أنكره بشهادة زُور.

ولذا نرى الرسول ﷺ - وقد **كان خُلُقُهُ القُرآن** - يُغلق على اللسان كلَّ باب فاسد يريد أن يدخل منه، فينهى عن الغيبة والنميمة، والكذب وقول الزور، ويوضح الآثار التي تترتب على زلات اللسان وسعْيه الباطل « **لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ** »[5]

وروى البخاريُّ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - **قَالَ**: « **مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ. أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنْ**

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الإسراء : ٣٦.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) ق : ١٨.

(٥) رواه البخاري.

الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » (١)

وروى الترمذي عن سفيان بن عبد الله ﷺ قال: قلت: « يا رسول الله حدّثني بأمْرٍ أعتصِمُ به قال: قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا» (٢)

وروى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: « مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ » (٣)

إنَّ كفَّ اللسان وضَبْطه هو أصلُ الخير كلّه « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » (٤)

وكان ابن مسعود ﷺ يحلف بالله الذي لا إله إلا هو « ما عَلَى الأرض شيءٌ أحوجَ إلى طول سِجْن من لسان »

وكفى من أراد أن يعرف خطر اللسان ويتوقى زلاّته، كفاه أن يقف عند ما رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ. وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ » (٥)

وانظر إلى الصحابة الأطهار ماذا كان موقفهم وقد سمعوا أمرَ ربِّهم، وعَرَفُوا هَدْيَ نبيهم ﷺ.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه الترمذي.
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه البخاري.

تعال بنا إلى شيخ الصحابة أبي بكر الصديق ﷺ لنرى ماذا كان يفعل مع اللسان وهو الذي لم تُعرف عنه كثرةُ كلام، بل كان إلى الصمت أقربَ.

روى مالك عن يزيد بن أسلم عن أبيه أن عمر دخل على أبي بكر - رضي الله عنهما - وهو يَجْبِذُ لسانه، فقال عمر: مَهْ غفر اللهُ لك، فقال أبو بكر: هذا الذي أوردني الموارد..

إن هؤلاء الأطهار انتصروا على أنفسهم، ونصروا الله في جميع أحوالهم، فنصرهم الله على أعدائهم.. فتلك إرادتهم مع أنفسهم ومعاملتهم لها ((أبو بكر يقول عن لسانه: هذا أوردني الموارد)) فماذا يقول غيرُه من الناس ؟

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

أخي المسلم:

وقفت بك طويلاً عند قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [1]، وأرجو الله أن يوفقنا جميعا إلى الطاعة، وأن يعصم أسماعنا، وأبصارنا، وقلوبنا؛ حتى لا نكونَ إلاَّ حيث يحب اللهُ ورسولُه ويرضى.

(١) الإسراء : ٣٦.

أخي المسلم:

استعن بالله وتوجه إلى قلبك؛ لتعرف ما يشغلهُ وما يتعلَّقُ به، استعن بالله ووجه قلبك إلى الله وحده، واحذر وساوس الشيطان، فإن الله لا يستجيب دعاءً من قلب لاهٍ غافل.

إن القلب إذا تيقظ سيطر على الجوارح.. وإذا صلح صلحت الجوارح كلُّها، وصلاحُ قلبك بمعرفة الله وحبِّه طاعة أمره. والرسول ﷺ هو إمامك في ذلك كله

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم:

إن أمورنا دائماً تحتاج إلى مراجعة، والنفس تحتاج إلى محاسبة، فاحْذر أن تكون ممَّن ضَلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً. راجع نفسك وحاسبها واصدُق معها.. واحذر أن تستعمل جوارحك في غير طاعة الله، فإنها ستشهد عليك وستنطلق بأمر ربها لتقول ما زاولتَ وما عملتَ.

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ

(١) آل عمران : ٣١.

(٢) النور : ٢٤.

obeikandl.com

وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [1]

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة. اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

***

(١) فصلت : ١٩ – ٢٤.

سعي الآخرة

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾

إن رفعة الإنسان في عبوديته لله وتواضعه مع عباده.

وكلما كَانَ الإنسان صادقاً في طاعته لله ﷻ، كلما ازداد برُّه بالناس وتواضعُه معهم.

ولقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في ذلك.. **عن أبي مسعود البدري** رضي الله عنه **قال: « أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ** (١) **فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ** (٢) **»** (٣)

وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه **أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ »** (٤)

قال ابن القيم: التواضع انكسارُ القلب لله. وخفض جناح الذل، والرحمة للخلق. حتى لا يَرى له على أحدٍ فضلاً، ولا يرى له عند أحدٍ حقًّا، بل ويرى الحق لغيره عليه.

وروى البخاري عن عمر رضي الله عنه **قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ »** (٥)

---

(١) الْفَرَائِص : جَمْع فَرِيصَة، وَهِيَ لَحْمَة تَرْتَعِد عِنْد الْفَزَع، وَالْكَلام كِنَايَة عَنْ الْفَزَع.

(٢) الْقَدِيد : اللَّحْم الْمُمَلَّح الْمُجَفَّف فِي الشَّمْس.

(٣) رواه ابن ماجة.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) رواه البخاري.

وروى البخاري عن أنس ﷺ قال: « إِنْ كَانَتْ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ »[1]

وروى البخاري عن أنس ﷺ قال: « كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْ. فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ »[2]

وروى أحمد عن الحسن ﷺ قال: « والله ما كان رسول الله ﷺ تغلق دونه الأبواب ولا تقومُ دونه الحُجَّاب، ولا يُغْدَى عليه بالجفان، ولا يُراح بها عليه، ولكنه كان بارزاً، من أراد أن يَلْقَى نَبيَّ الله لَقِيَه، كان يجلس على الأرض، ويُطْعِمُ الطعامَ بالأرض. ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويُرِدف خلفه، ويلعق يده »

أخي القارئ:

الآية التي نلتقي عليها الآن ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾[3]

إنها من سعي الآخرة، وهلْ تطيب الدنيا إلا بسعي الآخرة ؟

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي: تكبُّراً وبطراً واختيالاً، ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ بشدة وطأتك عليها، ﴿ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ بتمايلك

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) الإسراء : ٣٧.

وفخرك وإعجابك. بل سيكون أمرُ المتكبر نقيضَ ما طلب « **من تواضع لله رفعه، ومن استكبر وضعه الله** ».

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١)

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

ومعنى تُصَعِّر خدك للناس: أي تُميلُه وتُعْرِضُ به عن الناسِ تَكبُّراً عليهم. والمرح: التَّبَخْتُر.

روى مسلمٌ عن عبد الله بن مسعود ﷺ **عن النبي** ﷺ **قال: « لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ »** (٣) ومعنى بَطَر الحق: دفْعُه وردُّه على قائله؛ وعَدَمُ الإذعانِ أو عدم الانقياد للحق، وغَمْطُ الناس: احتقارهم.

وروى الترمذي عن سلمة بن الأكوع ﷺ **قال: قال رسول الله: « لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ** (٤) **حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ، فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ »** (٥)

---

(١) القصص : ٨٣.

(٢) لقمان : ١٨

(٣) رواه مسلم.

(٤) أي : يوافقُها على ما تريد من الاستعلاء حتى تَصيرَ متكبرة.

(٥) رواه الترمذي.

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « يقول الله ﷻ: العز إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني في واحد منهما فقد عذبته » [١]

أخي القارئ:

كلُّ إنسان ينشد الخير ويَطْلُبه، ويرجو النجاة والفوز، فاحذر أن تضل الطريق فتطلب الخير من طريق الشر، أو تنشد النجاة من طريق الدَّمار والهلاك.

طريق عزِّك أن تتواضع لربِّك « **مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ** » [٢]

وسبيلُ نجاتك أن تُخضِعَ هواك للحق وأن تُذعِن للصدق، ولكي تظل في اعتدال يحقق لك العبودية لله - دون استعلاء تضلُّ معه أو ذل تنتهي به - عليك أن تكون مؤمناً بقضاء ربك، وأن تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾** ﴾ [٣]

ذاك هو الطريق لاعتدال النفس دون استعلاء أو ضعف. إنه الاعتدال الذي يقابلُ الإنسان به صروفَ الحياة وظروفها المتباينة وهو عبدُ لله، لا تطغيه النعمة ولا يذله الفقر ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [٤]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد.

(٣) الحديد : ٢٢، ٢٣.

(٤) العنكبوت : ٦٩.

obeikandl.com

الطريق إلى الفردوس

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾

أيها القارئ الكريم:

يجئ الناس إلي الحياة بأمر ربهم ولا يعلمون ساعة المجئ.

ويخرجون منها كذلك بأمر ربهم ولا يعلمون ساعة الخروج ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٣٤ ﴾[1]

وفي مجيئهم إلى الحياة امتحان واختبار، ويخرجون منها إلى الحساب والجزاء، ومن رحمة الله بالناس أن جعل نِعَمَهُ تغمرهم، فينتفعون ويتذكرون.

إنها نعمٌ ذاتُ دلالات حيَّة في مخاطبة الإنسان وتذكيره، إنها آياتُ الله الدالّةُ عليه. المنبهةُ إلى رحمته وقدرته ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨ ﴾

---

(١) لقمان : من الآية ٣٤.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١)

آيات وآياتٌ يخاطب بها الإنسان. والناس أمامها فريقان؛ فريق يشارك الأنعام في المتاع ولا يزيد، وفريقٌ يعرف للنعمة حقها من الشكر والاعتراف بالفضل، والله – جَلَّ وَعَلاَ – قد جعل ما تُنْبته الأرض متاعاً للإنسان والأنعام..وجعل في النِّعَم دلالات لا يدركها إلا الإنسان بما وهبه اللهُ من علمٍ وإدراك، فإذا ما وقف الإنسان أمام النِّعم فلم ير فيها إلا المتاع، فقد أَبَى إلا أن يكون كالأنعام، بل دونها بكثير؛ لأنَّ الأنعام لا تُخاطب بالنعم لتعرف دَلالَتَها، وليس لها من علم وإدراك، وإنما يُخاطب الإنسان وقد زُوِّد بأسباب العلم والمعرفة.

ففي مجال التسوية بين الإنسان والأنعام في المتاع، نسمع قول الله تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾(٢)

(١) الأنعام : ٩٥ – ٩٩.

(٢) عبس : ٢٤ –٣٢.

ولكن الإنسان وحده هو الذي يُطالَب بالنَّظر، ومن أجل التذكرة مع المتاع جرت النِّعم بين يديه، ومن أجل التبصرة قامت الآيات أمام عينيه ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (٣)

ولكن هل تتحقق التبصرة لكل إنسان. أم أن الناس يتفاوتون ؟ فمنهم من يعرف للنعمة دلالتها، ومنهم من لا يرى فيها إلا المتعة، فهو يأكل كما تأكل الأنعام، ويزيد عنها حُبَّ تكاثرٍ ورغبةً في كنـــز.

إن الناس يتفاوتون تبعاً لذلك، ومن هنا كان في الحياة مؤمنٌ وكافر، مؤمن عرف الآيات وأدرك دلالتها، وكافر حُجب عن ذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ (٤) ، ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا

(١) عبس : ٢٤.
(٢) ق : ٦ - ٨.
(٣) الفرقان : ٦٢.
(٤) محمد : من الآية ١٢.

لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١)

وإذا كان للإيمان آياتٌ - في النفس وفي الآفاق - توصِّلُ إليه. فإن له أعمالاً وواجبات تدل عليه، بها يُعرف المؤمن ويتميز عن غيره ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (٢)

أيها القارئ الكريم:

نحن مع الأعمال التي تُميز المؤمن عن غيره، بل مع الواجبات التي تُصَدِّقُ الإيمان وتدل عليه ((**ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل**))

إنها واجبات يُعرف المؤمن بها، ولا إيمان بغيرها. والمجتمع الإسلامي - وهو يطلب الفلاح وينشد الفوز - لا بُدَّ أن يقوم بتبعات إيمانه، وأن يؤدي فرائض دينه،

(١) الأعراف : ١٧٩.

(٢) المؤمنون : ١ -١١.

وأن يصدق في الأداء؛ حتى تتميز شخصيتُه، وتَعْلُوَ كلمتُه، إنه مجتمع ذو هدف وغاية، مجتمع رباني يؤمن بالله وكلماته، يتجه بأعماله كلّها إليه، ينشد فضله ويطلب رضاه. وقبل أن يُؤَدَّي الواجبُ يجبُ أن يُعْرف، ولا بُدَّ أن يَتَقَدَم معرفةَ الواجب وأدَاءَه إيمانٌ بالله تستقيم به الأعمال وتطهر، إن كل عمل بدون إيمان جسد بلا روح، وكل عمل يؤدى بلا إيمان ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾[1] ولذا اقترن الفلاح به دوه سواه ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾[2]

ونمضي مع المفلحين ندرك صفاتهم ونعرف واجباتهم، نسأل الله أن نكون منهم ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ ﴾[3]

أخي المسلم:

الإيمان بأَنْ لا إله إلا الله يقتضي - بجانب الاعتقاد - سلوكاً وعملاً. سلوكاً يرتبط بهذا الاعتقاد. وعملاً لا يخالفه، يعمله المؤمن طاعةً لله وابتغاء مرضاته.. وكلّ عمل يراد تحقيقه لا يقوم على هذا الأصل هو ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾، وكل اعتقاد لا يصدقه العمل إنما هو دعوة بلا دليل « **وليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل** ».

من هنا كان اختبارُ المؤمنين بالواجبات، وامتحانُهم بصنوف من الابتلاءات أمراً لا بُدَّ منه لإظهار حقيقة الإيمان وليُعْلِم الصادق من الكاذب، ولن يكون الفوز والفلاح هناك إلا بعد ابتلاءٍ يمحِّص ويظهر حقيقة ما في النفوس ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ

---

(١) النور : من الآية ٣٩.

(٢) المؤمنون : ١.

(٣) الجن : من الآية ١٣.

ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [1]

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [2]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [3]

ولهذا فإننا لا نرى إيماناً - تترتب عليه نتائجُ فوز وفلاح - بدون عملٍ يقترن به ويتصل بحقيقته ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ ﴾ [4]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ ﴾ [5]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [6] ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

(١) العنكبوت : ١-٣.
(٢) محمد : ٣١.
(٣) آل عمران : ١٤٢.
(٤) الكهف : ٣٠.
(٥) الكهف : ١٠٧.
(٦) مريم : ٩٦.

نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [1]

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [2]

ومن رحمة الله بالناس أن يحدِّدَ لهم صفات المؤمنين الذين كَتَب لهم الفلاح، وأن يوضح أعمالهم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [3]، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [4] ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [5]

---

(١) العنكبوت : ٥٨، ٥٩.

(٢) الروم : ١٤-١٦.

(٣) المؤمنون : ١ ، ٢ .

(٤) الأنفال : ٢-٤.

(٥) الحجرات : ١٥.

وفي الآيات التي معنا أوَّل ما يطالعنا من صفاتهم أو من حقيقة إيمانهم: خُشُوعُهم في صلاتهم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾ [1]

والصلاة التي خشعوا فيها قد سُبقت بمقدِّمات من الطُّهر، تكفرُ الذنوب وترفع الخطايا « لاَ تُقْبَلُ صَلاَةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ، وَلاَ صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ » [2]

في صحيح مسلم عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ » [3]

وفي الحديث المُتَّفق عليه عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ » [4]

وهذا الوضوء أو الطَّهور، يدخل به الإنسان فرضاً في صلاته الخاشعة الساكنة، كما يدخل به استحباباً إلى نومه، ليُسلِمَ وجهه إلى الله ويفوِّضَ الأمر إليه.

في صحيح البخاري عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ؛ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَى مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ. اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَلَغْتُ: اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي

(١) المؤمنون : ١.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) متفق عليه.

أَنْزَلْتَ. قُلْتُ: وَرَسُولِكَ. قَالَ: لا. وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » [1]

أخي القارئ:

أرأيت مقدمة الدخول إلى الصلاة إنه الوضوء الذي لا يحافظ عليه إلا مؤمن ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾ [2]، وإنَّ حليتهم يوم القيامة تبلغ حيث يبلغ الوضوء، ففي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ يَقُولُ: « تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنْ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ »[3]

إن الوضوء هو مفتاح الصلاة، وكلٌّ من الصلاة والوضوء مُوجبٌ لفتح أبواب الجنة، كما في صحيح مسلم عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » [4]

أخي المسلم:

هذا بيان مَنْ كان خُلُقُهُ القُرآن ﷺ في أمرِ الوضوء وأثرِه ونتائجه، وهو مفتاح الدخول إلى الصلاة ولا تُقبل صلاة بدونه. فما بيانه عن الصلاة الخاشعة التي وُصِفَ بها المؤمنون ؟

كل أمر يُقْدِمُ الإنسان عليه لا بُدَّ أن يَعْرِفَ حقيقته، وأن يُدرك نتائجه وغايته، وقد تعرفنا على مقدمة الصَّلاة الخاشعة التي وُصِفَ بها المؤمنون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ [5]

---

(١) رواه البخاري.

(٢) المؤمنون : ١.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) المؤمنون : ٢.

تعرّفنا على الوضوء، وعرفنا فضله وأثَرَه من بيان مَنْ **كان خُلُقُهُ القُرآن**ﷺ ، وما دُمْتَ أخي المسلم قد أحْسَنْتَ وُضُوءَك كما أمر الرسول ﷺ فدعْنَا نقف وقفة يَسيرَةً قبل الدخول في الصلاة المكتوبة.

إنها وقفة مع بلال رضي الله عنه والرسول ﷺ يسأله عن أرْجَى عَمَلٍ عَمِلَه في الإسلام؛ فإنه قد سمع دَفَّ نعليه بين يديه في الجنَّة.

الله أكبر، ما أكرمها بشرى ! فما السبيل إليها ؟

فلنسمع من بلال رضي الله عنه، علَّنا نوفَّق - في إخْلاَصٍ وصدق - لمثل ما فعل، فيكون لنا في البشرى أملٌ وفي الفوز رجاء.

في الحديث المُتَّفَق عليه - وهذا لفظ البخاري - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِبِلاَلٍ عِنْدَ صَلاَةِ الْفَجْرِ: « يَا بِلاَلُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الإِسْلاَمِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلاً أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا - فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ - إِلاَّ صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ » (١)

آمل أن يوفقك الله أخي القارئ إلى أن تُدرك هذا الفضل، وأن تنال ذلك الأجر.. ولنمض إلى الصلاة المكتوبة، لنرى بيان الرسول عنها، ونتأمل وصْفَه لها، ونرى حقيقة هذا الوصف في الأثر والنتائج.

في الحديث المُتَّفَق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟ قَالُوا: لا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو

(١) رواه البخاري.

اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا » [1]

وروى مسلم عَنْ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ، عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ » [2]

أخي القارئ:

أود أن تُدْرك أنَّ النهر ببابك، وأنه سخي جارٍ لا ينقطع، وأنك تغتسل منه فيغمرك بمائه، فلا يَبْقَى من درنك شيء.

تعال بنا - إذن - ترى أثر النهر وأثر الصَّلاَة من حديث من أُمِرَ بإقامتها، فكانت قُرَّةَ عينه في الصلاة ﷺ.

يحرص الناس على الماء ويرتحلون إليه؛ لأنهم يُدركون قيمته، ويعلمون أنَّ حياتهم تتوقف عليه ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [3]

فحيث يوجدَ الماء تُوجد الحياة والنماء. فإذا افتقده الناس على وجه الأرض، طلبوه في جوفها. وكان من مِنَّةِ الله عليهم أن أوجده قريباً منهم، فلو غار عنهم لم يستطع أحدٌ من الخلق أن يُقَرِّبَهُ منهم ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [4]

هذا حالُ الناس مع الماء إذا بَعُدَ موردُه أو عزَّ مَطْلَبُهُ.

فما حالهم مع النهر الملتصق ببابهم، الذي يمر بهم سخيًّا لا ينقطع ؟ ما حالهم مع الصلاة ؟ قد ينصرفون عنها، ويرون حياتهم قائمةً بدونها. وخطأ يظنون.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الأنبياء : ٣٠.

(٤) الملك : ٣٠.

أيُّ النهرين أحقُّ بالحرص عليه، نهر يبقى بأثره مع الروح ويمتد، أم نهر ترى أثره في جسد ؟ وما مَدَّ الباقي فهو بأثره ممتد، وما أعطى الجسد منقطع إذا الجسد فسد.

إن صح أن يحيا الإنسان بلا روح جاز أن يحيا بلا صلاة. أي بلا نهرٍ معنوي يطهر قلبه، ويهذبُ نفسه، ويَضْبطُ سلوكه، ويُحيي ضميره.

إن الماء مصدر طُهر ونماء، تطهير الصلاة للنفوس أبقى وَأغْنى من تطهير الماء للأجساد.

إن النفوس التي لا تطهر بالصلاة لا تحيا بقلب، ولا تسعى بضمير. ويمكن أن تحوِّلَ - بِسُلُوكها - نِعَمَة الله إلى نِقَم، وأن تلوث حياة الناس بالفحشاء والمنكر والفساد.

إن الصلاة منهج يومي للمؤمن، والمنهج اليومي - بضوابطه الزمنية والنفسية، واشتماله على الطُّهر، مع قيامه في جَمْع وجُمَع - حَرِيٌّ أن يصهر النفوس في بوتقة الطُّهر، طُهْرِ الظاهر والباطن، وأن يضبط السلوك الإنساني بضابط الرِّقابة الدائمة، رقابة الخشية من الله، ومعرفته والتقرب إليه، وهو ضابط تنعدم معه فكرةُ السُّوء في الخاطر، فيطمئن الناس في الظاهر والباطن ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [1]

أخي المسلم:

« **إِنَّمَا مَثَلُ الصَّلاةِ كَمَثَلِ نَهْرٍ غَمْرٍ عَذْبٍ بِبَابِ أَحَدِكُمْ، يَقْتَحِمُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ** » [2] فأدها وأقمها مقتدياً بنبيك ﷺ الذي قال: « **صَلُّوا كَمَا**

(١) العنكبوت : من الآية ٤٥.

(٢) رواه مالك.

رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي » [1]؛ لتكون مِعْراجك إلى الفردوس. أَقِمْهَا خاشعاً مخلصاً، لتطهر بها نفسك وتُمْحَى بها خطاياك. ولقد علَّمَنَا رسولُ الله ﷺ من أدعية الاستفتاح « اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنْ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ » [2]

❁❁❁

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

obeikandl.com

الطريق إلى الفردوس

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾

أيها القارئ الكريم:

إن أحبَّ البقاع إلى الله من الأرض هي البُيوت التي يُذكر فيها اسمُه، وبيوت الله في الأرض المساجد.

وصلاة الجماعة في المسجد - كما أرادها الله - زادٌ متصل يصل هذه الأمةَ بخالقها وهي تلتقي في صفوف خاشعة ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨ ﴾ (١)

صلاةُ الجماعة في المسجد - كما يجب أن تكون - هي أقوم سبيل لانصهار هذه الأمة في بوتقة الطُّهر، وائتلافها واجتماعها على شرف التسبيح والذكر. إنها تُنبئ عن المريض فيُزار، غاب فلان ولا بُدَّ من عذر، فتحيطه الجماعة بسؤالها وبرها ودعوتها وتعاطفها. إنها رباط متصل بين أبناء هذا الدين، رباطٌ على أشرف غاية وأقوم رسالةٍ وأهدى سبيل.

---

(١) النور : ٣٦-٣٨.

obeikandl.com

صلاة الجماعة في المسجد عنوانُ فلاح هذه الأمة في دنياها وأُخراها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ (١)

جمع ينبئ عن جماعةٍ المفلحين ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ تلك أُولى خصائصهم ومقوماتهم التي توصلهم إلى رضوان الله وجناته ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ (٢)

أيها القارئ الكريم:

تعال بنا نعيش مع حديث الصادق الأمين، مَن كان خُلُقُهُ القُرآن ﷺ ماذا يقول عن صلاة الجماعة. وكيف كان حِرْصُ الصحابة -رضوان الله عليهم- عليها.

ففي الحديث المُتَّفَق عليه – وهذا لفظ البخاري – عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « صَلاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَة تُضَعَّفُ عَلَى صَلاته فِي بَيْته وَفِي سُوقه خَمْسًا وَعشْرِينَ ضعْفًا، وَذَلكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِد، لا يُخْرِجُهُ إِلاَّ الصَّلاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلاَّ رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلْ الْمَلائكَةُ تُصَلِّي عَلَيْه مَا دَامَ فِي مُصَلاَّهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْه، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ. وَلا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاة مَا انْتَظَرَ الصَّلاةَ » (٣)

وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلمًا فَلْيُحَافظْ عَلَى هَؤُلاء الصَّلَوَات حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا

---

(١) المؤمنون : ١، ٢.

(٢) المؤمنون : ١٠، ١١.

(٣) رواه البخاري.

الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِه، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِه الْمَسَاجِد إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَة يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ » (١)

وروى أبو داود بإسناد حسن عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: « مَا مِنْ ثَلاَثَة فِي قَرْيَة وَلاَ بَدْو، لاَ تُقَامُ فِيهِمْ الصَّلاَةُ إِلاَ قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ. فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَة؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ » (٢)

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: « أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ أَعْمَى فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِد. فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّه ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِه، فَرَخَّصَ لَهُ، فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ: هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلاَة؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَجِبْ » (٣)

أيها القارئ الكريم:

ما أيسرها خطوات تخطوها إلى المسجد يطمئن فيها بذكر الله قَلبُك: وتنشرح بأداء الواجبِ نفسُك وتُحطُّ خطاياك وتُرفَعُ درجاتك.. وتلتقي مع إخوانك على شرف القصد وطهارة النفس.

في الحديث المُتَّفَق عليه عن أبي هريرة ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلاً كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ » (٤)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْته، ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْت مِنْ بُيُوت اللَّه؛ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِض اللَّه، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً » (١)

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَات ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه. قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَى إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ. فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ » (٢)

أخي المسلم:

إنَّ قلوبَ الناسِ إذا تعلقت بالمساجد فقد ارتبطت بمكانِ عزِّها وموطن مجدها. ولئن كانت مدنية العصر قد حاولات أن تُلهي الناس، وامتدت إلى بعض المسلمين فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فإن المسلمين - وقد لاقوا من كيد أعدائهم ما لاقوا - في حاجة دائماً إلى أن يأخذوا أنفسهم بآداب المسجد وفرائضه، وأن يجيبوا صوت الداعي إلى الفلاح في كل صلاة، وأن يقيموها خاشعين لله؛ فإن أول ما يحاسبُ به العبدُ يوم القيامة من عمله صلاتُهُ، فإن صَلَحَتْ فقد أفْلَحَ وأنْجَحَ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

✿✿✿

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) آل عمران : ٨.

الطريق إلى الفردوس

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾

أيها القارئ الكريم:

إن أخطر ما يُفْسِدُ على الإنسانِ أمْرَه، بل ما يُوقع بين الناس الشرَّ والفساد هو اللسان.

إن اشتغال المرء بما لا يعنيه، يجره دائماً إلى لغو الحديث وباطله، **والرسول ﷺ يقول:** « **مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ** » [١]

ومن صفات المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣** ﴾[٢]، ﴿ **وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥** ﴾[٣]، ﴿ **وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ۝٧٢** ﴾[٤]

واللغو هُوَ الباطل، أو كلُّ قبيح من الكلام، أو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال.

والمؤمنون بحُكم إيمانهم بعيدون عن كلِّ معاني اللغو من الشرك، والباطل، والمعاصي، والكذب، مُعرِضون عن سفاهة السفهاء، لا يقعون فيما لا يُعتدُّ به من الأقوال والأفعال.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة.

(٢) المؤمنون : ٣.

(٣) القصص : ٥٥.

(٤) الفرقان : من الآية ٧٢.

إن الإيمان يعصم صاحبه من الباطل، والإسلام يُبعده عن الاشتغال بعيوب الناس، ويأمره بأن يُمْسِكَ الفضل من قوله، وأن يجود بالفضل من ماله « **طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس، طوبى لمن أنفق الفضل من مالِه، وأمسك الفضل من قوله** »[1]

أخرَّج الترمذي وابن ماجة من حديث أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ عَنْ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: « كُلُّ كَلامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لاَ لَهُ إِلاَ أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرُ اللَّه »[2]

وقد نَفَى اللهُ الخير عن كثير مما يتناجى به الناس فقال: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[3]

إن اشتغال القلب بمرضات الله يُخضِعُ اللسانَ للحق ويهذِّبُهُ؛ لأنه إذا تكلم ذَكَرَ سَمْعَ اللهِ له، فأمسك عمَّا لا يُرضيه، وإذا سكت ذَكَرَ نظرَ اللهِ له، فكان سكوتُه قُرْبَى إليه ، فلا تنطوي نفْسُه إلا على ما يحبُّ الله ويرضى ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾[4]

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة.

(٣) النساء : ١١٤.

(٤) يونس : ٦١.

الله أكبر ! إحاطة كاملةٌ بكل شيء، بما خفيَ وظهر، فما تخفيه الصدور، وما تبديه النفوس من قولٍ أو فعل، خيرٍ أو شرٍّ، مكتوبٌ ومسطورٌ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (١)

قال عمرُ بنُ عبد العزيز رضي الله عنه: « مَنْ عَدَّ كلامَه من عمله، قَلَّ كلامُه إلاَّ فيما يَعْنيه »

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

إن القول عملٌ يُحْصَى على صاحبه « وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ » (٣)، وما أشدَّها لحظة تلك التي يجد الإنسانُ نفسَه فيها مأخوذاً بعمله، مُداناً بفعله. ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٤)

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (٥)

---

(١) الزّخرُف : ٨٠.

(٢) ق : ١٦-١٨.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) آل عمران : ٣٠.

(٥) الكهف : ٧٩.

أخي القارئ:

احذر لَغْو الحديث وباطله، فربَّ كلمةٍ باطلةٍ ألقت بصاحبها في جهنم، واجعل قولك دائماً لوجه ربك دون أن تُرائي الناس بعملك، فالناس لا يُغْنُون عنك من الله شيئاً.

روى الترمذي عن بلال بْن الْحَارِث الْمُزَنِيَّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ » (١)

وروى الترمذي – أيضاً – عَنْ ابْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « لا تُكْثِرُوا الْكَلامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي » (٢)

أيها القارئ الكريم:

ما أعظم هذا الدين وهو يؤدب المسلم بهذا الأدب الرفيع، فهل تعي الإنسانية طريق أمنها وسلامها ؟! إن الأمن والسَّلام يرتبطان بصفات النفس، ويتصلان بالقيم والأخلاق.. ولست أرى سبيلاً للخلق القويم غير هذا الدين ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (٣)

✿✿✿

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) الأنعام : ١٥٣.

الطريق إلى الفردوس

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

أيها القارئ الكريم:

إن الإسلام هو دينُ الطهارة في شتَّى صورها، طهارة النفس، وطهارة المال ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (١)، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (٢)، ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (٣)، ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٤)، ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٥)، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ (٦)

وما من فريضة لهذا الدين إلا وتراها طهارة للنفس البشرية من دَنَس العبودية لغير الله تعالى فالصلاة حين تُقام إنما تُقام لله وحده، والزكاة حين تُؤدى إنما تُؤدَّي

---

(١) المؤمنون : ٤.
(٢) الشمس : ٩،١٠.
(٣) آل عمران : ١٦٤.
(٤) التوبة : من الآية ١٠٣.
(٥) المائدة : من الآية ٦.
(٦) البقرة : من الآية ٢٢٢.

ابتغاء مرضات الله، والصوم لله، والحج استجابةٌ لأمر الله ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١)

كل فرض أو عمل يؤدَّى لغاية واحدة دون سواها ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (٢)

ذاك أصلُ الطهارة في هذا الدين. طهارة النفس بالعبودية لله وحده، وعدم الإشراك به، ومن هذا الأصل تُؤَدِّي الفرائضُ وظيفَتَها في حياة الناس وتُؤتِي ثمارها.

والآية التي نعيش معها هي من صفات المؤمنين أو من خصائصهم ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٣)

هي للطهارة سواء أُريد بالزكاة زكاة المال أو زكاةُ النفوس. والمؤمن يفعل هذا وذاك. وزكاة المال وإن اختصت بالمال فطهرته، هي لطهر النفس من الشُّح والبخل بعد طُهر المال بالزكاة والشكر.

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٤)

ولْنَمض في طهارة المال في ضوء الكتاب والسنة، ونرى أثر التخلق بخلق القرآن ونتائجه في هذا الجانب.

---

(١) الحَجّ : ٣٧.

(٢) الأنعام : ١٦٢، ١٦٣.

(٣) المؤمنون : ٤.

(٤) الحشر : ٩.

إن المال عصبُ الحياة، وكتابُ الله – **جَلَّ وَعَلاَ** – يُقَدِّمُهُ في بعض الآيات على الأولاد؛ دلالة لتعلق النفوس به وحرصِها عليه.

والسنة – وما أكرمَها – تربط مصيرَ الإنسان وكرامتَه – في بعض الأحيان – بحماية ماله، وتَعُدُّه شهيداً إن هو قُتِلَ في سبيل حمايته والذود عنه « **مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ** » (١)

وإذا كان المال بهذه المكانة، وكان تعلق النفوس به إلى هذه الدرجة، فإن الإسلام يعمل على أن يرسِّخَ في النفوس – أولاً – ما هو أعز وأكرم وأبقى وأدوم؛ ليُخْضِعَ المالَ لما في النفس من غاية، وما في القلب من إيمان. إنه يعمل على أن يقوِّم في النفس سلطان الإيمان ليصرَف ما في اليد حَسْبَ أمرِه وقانونه. وما أجمل دُعاء المؤمنين وهم يقولون: **اللهم اجعل المال في أيدينا، ولا تجعله في قلوبنا.**

إن الإنسان في ضوء الإيمان يعرف مصدرَ المال، ويُدرك عملَ الإنسان فيه، إن الإنسان لم يخلق المادة وإن حَوَّرها أو حَوَّلها أو أجرى عملَ الفكر فيها.

والفكر لم يخلقه هو الآخر بل وهبه الله له.

وقد جاء الإنسانُ إلى الدنيا وهي تزخر بكنوزها ومكنوناتها وما أودع اللهُ فيها جاء مُزَوَّدا بوسائل الانتفاع بها ودوافع الحاجة لما فيها، وقد وجد نفسه على أرض فسيحة متنوعة. وفيه من غريزة التطلع وحبِّ الاستطلاع ما يغريه بمعرفتها والكشف عن خباياها. وله من ضروراتِ الحاجة الملحة ما يدعوه لأن يعمل ويسعى ويختبر ويلاحظ.

موهبة مخلوقة تحثها الحاجةُ، ويغريها التطلع إلى الكشف والتجربة والانتفاع. وما ينتج عن هذا إنما هو للإنسان نفعاً وإصلاحاً، وهو من الله خَلْقاً وتسخيراً ﴿ **ٱللَّهُ**

(١) رواه البخاري.

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢)

ومن هذا الاعتقاد يكون موقفُ الإنسان من المال موقفَ المستخلف الذي يُصرِّفه بأمر الله الذي استْخلَفه.

(الإنسانُ مستخلَف) ذلك أصدق وصف ينطبق على الحقيقة والواقع، ويعبر عن الصدق واليقين في أمر الإنسان.

مستخلف: حقيقة لا مراء فيها ولا جدال، ومن هذا التحديد لمصدر المال وصلةِ الإنسان به نفهم دعوة الإسلام إلى الإنفاق في سبيل الله، وندرك أننا إزاء حق لله لا بُدَّ أن يؤَدَّى كما أمر الله في البرِّ بخلقه. إنه مال الله ومن ضَنَّ به أُخِذَ.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ

(١) إبراهيم : ٣٢-٣٤.

(٢) الجاثية : ١٢، ١٣.

الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ. ثُمَّ تَلا: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [1] [2]

لا أعرف شيئاً يصُون أمرَ الناس ويحقق البرَّ بينهم كما تفعل أخلاقُ القرآن التي تخلق بها رسول الله ﷺ ودعَا الناس إليها وربى أصحابه عليها.

ونحن نعيش مع الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [3]، وهي من الآيات التي وُصِفَ بها المؤمنون ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [4]

وقد ذكرنا فيما سبق بعض الآيات والأحاديث وأردت بما ذكرت أن أتأمل أسلوب القرآن الفريد والسنة المطهرة؛ لندرك معهما أن الخليفة الراشد أبا بكر الصديق رضي الله عنه حين قاتل مانعي الزكاة، إنما كان مدفوعاً بيقين ثابت وإيمانٍ راشد وغيرة صادقة على مقدرات هذه الأمة ورعاية أمانتها.

ماذا بعد أن تسمع ممن خلقك ورزقك ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [5]

---

(١) آل عمران : ١٨٠.
(٢) رواه البخاري.
(٣) المؤمنون : ٤.
(٤) المؤمنون : ١١.
(٥) التغابن : ١٧.

يا الله: ماذا يطلب العبد من برٍّ وكرمٍ ورحمة بعد هذا ؟

ماذا بعد أن يخاطب الله عباده بهذا الأسلوب البار الكريم ؟

والنتيجة لا تعود إلى الله - أنفق العباد أو لم ينفقوا - فالله غني عن العالمين.

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢ ﴾ (١)

ومع هذا الخطاب البار الرحيم في الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله والحث عليه، نرى الإسلام قد سلك أبرَّ السُّبل وأكرمها وهو يأخذ الزكاة من أغنياء المسلمين ليردها على فقرائهم. يأخذها بلا ظُلْم ولا استعلاء. فباسم الله تؤخَذ، وباسم الله تُعطَى.

ومع أن المال مالُ اللهُ، والعبادَ عبادُه - فهو مع ذلك يعدهم على حُسن قيامهم عليه وتصرفِهم فيه الأجر الجزيل في الآخرة، بالإضافة إلى ما ينعمون به في الدنيا من أمن ورخاء، وطهارة ونماء.

والزكاة مع هذا لا تُؤخَذ عن غير قُدرة، ولا يُعطاها غيرُ محتاج.

إن ميزان العدل في الأخذ والعطاء مَيْزَةُ هذه الفريضة الإلَهية.

قد تستأجر أرضاً من عبد، فأنت تدفع له الأجر. نما الزرع أو هلك. لكنك هنا في الفريضة العادلة تدفع الزكاة مع النماء. تدفع عما أنتجت الأرض بحساب - العشر أو ربعه- وأنت تملك مالاً يدور في حاجتك لا يستقر، ولا يمضي عليه حول، هذا مال الضرورة بالنسبة لك. فلا شئ فيه إلا ما تُقدمه عن طيب نفس.

لكن المال الذي يستقر معك حولاً كاملاً، ليس هذا مال الضرورة بالنسبة لك، وإنما هو مال زائد عن حاجتك فلا بُدَّ أن تدفع عنه الزكاة.

---

(١) البَقَرَة : من الآية ٢٧٢.

فأنت ترى في كلّ صورة من صور الزكاة أن الحق والعدلَ هما ميزان هذه الفريضة البارة، لا ظُلم قط، بل هي عدالةُ الله ورحمتُهُ بين عباده ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ (١)

وفي الحديث المُتَّفَق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: « إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ، هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّه حِجَابٌ » (٢)

الله أكبر: عدل في الأخذ وبرٌّ في العطاء. لا تؤخذ الزكاة عن غير مقدرة – بل لا تؤخذ كرائم الأموال ولا تُعطى إلا لمحتاج.

وانظر إلى أثر الزكاة وهي تصدر عن إيمان بالله واليوم الآخر. إنها تحفظك، إذ لا تفرق بين عاجلك وآجلك، وتربط بينك وبين أخيك برباط الود والحب والطمأنينة والأمن.

إن الزكاة لا تقوم على ذكر اليوم ونسيان الغد، بل تؤخَذ من يومك لغدك، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ (٣)

---

(١) الطَّلاَق : من الآية ٧.

(٢) رواه البخاري.

(٣) آل عِمرَان : من الآية ٣٠.

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١)

أخي القارئ:

إن الدرهم في ساحة هذه الفريضة (فريضة الزكاة) إنسانيٌّ النـــزعة في الكسب والعطاء. يمثل خُلق صاحبه الذي يحمد الله ويرجوه أن يتقبل، ولا يُتْبعُ صَدقته بمَنٍّ ولا أذى.

والإنسان مع هذه الفريضة حُرٌّ، يجني نتيجة كسبِه وعمله وهو يدفع قدراً معلوماً يُعلن به ولاءه لخالقه واعترافه بنعمته وفضله. وفي ظل الحرية المكفولةِ حرية العمل والكسب يتحرك الإنتاج بارًّا بالإنسان، حفيًّا به، وفيًّا ليومه وغده، نعم يتحرك الإنتاج بلا تضخم ولا استعباد، فيحيا معه الفرد بين حرية العمل البار والاعتدال العف. لا يشكو تخمةَ المال الظالمُ بالكَنْزِ، ولا مسْغبةَ الفقر المظلومُ بالشح.

فتوجد أمةُ الخير ذاتُ اللبنات القوية المستقيمة المتراحمة، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

نعم، توجَد بقانونها العادل، والله يمكن لها في الأرض. وقانونها ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢)

لقد تخلّق رسول الله ﷺ بالقرآن، فما دعا القرآن إلى شئ إلاَّ كان أقربَ الناس إليه، ولا نهى عن شئ إلاَّ كان أبعدَ الناس عنه.

---

(١) المزمل : من الآية ٢٠.

(٢) الحج : ٤١.

ذكرنا من قبل أن هذا الدين هو دينُ الطهارة في شتَّى صورها؛ طهارةُ النفس، وطهارة المال، ونحن في رحاب الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [1]، لنرى أسلوب القرآن في الدعوة إلى الزكاة، زكاة المال، أو زكاة النفس.

إذا تأملنا أسلوب القرآن الكريم في طلبه للإنفاق، وجدناه يقدِّم له بما يُشعر الإنسان بسَيْطرة الخالق على الكون، فكل شئ مسبح بحمده، وكلُّ شيءٍ خاضعٌ لأمره. اقرأ قبل طلب الإنفاق في سورة الحديد ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾ [2]

يا الله. أكُلُّ هذا يذكر قبل طلب الإنفاق ؟ ستُّ آيات تُقدَّم بهذه الصورة المشرقة القاطعة بين يدي الآية السابعة التالية ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [3]

---

(١) المؤمنون : ٤.

(٢) الحديد : ١-٦.

(٣) الحديد : ٧.

لِمَ كل هذا ؟ والإنسان في جميع أحواله يرى الأثر الرائع للقدرة الغالبة والأمر المسيطر، يرى ذلك في نفسه وفيمن حوله، في الأجيال يتبعُ بعضُها بعضاً، جيل يتبع جيلاً إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها. في آيات الكون وما أعظمها، في نِعم الله التي لا تُحصى وما أجلَّها، وكلُّ شئ يدين لله بالطاعة، ويشهدُ له بالعظمة، وينبئ في تكوينه واتساقه عن الحكمة البالغة، والنعمة الوافرة، والعطاء الممتد.

ومع جميع الشواهد التي لا تحصى ولا يقع أمْرها تحت حصر، ترى الحق - جَلَّ وَعَلاَ - رحمةً بعباده يطلب منهم رعاية أنفسهم بالإنفاق. فيقدم لهذا الطلب؛ تعريفاً بنفسه، وذكراً لعظمته في آياته، وبياناً لنِعمه في خَلْقه. ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

دقق النظر فيما ذكرنا من آيات، وعش بقلبك في هذه الحقائق البينة؛ لتعرف مَن استخلفك في الأرض، ولتدرك أن أمر الإنفاق في الإسلام قام على أُسس ثابتة، بل على حقيقة باقية خالدة. وأنَّ ما اقترن به من أخلاق، وارتبط به من فضائل، منشؤه الاتصالُ بين العبد وخالقه بالطاعة والعبادة. بين الدنيا والآخرة بالسلوك والعمل، بين الإنسان وحقائق الكون بالتأمل والنظر، بين الحياة والموت باليقظة والاستعداد.

من هنا ترى المؤمن - وهو يؤدي حقَّ الله في المال الذي أعطاه - يستمسك بالخُلق والفضائل التي ترتبط بإيمانه، وتنبع من يقينه.. فلا منَّ ولا أذى، بل ضراعةٌ إلى الله أن يتقبل، وخوفٌ أن يَحْبَطَ عملُه برياء أو شرك ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ

(١) ق : ٨.

لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [1]

وإنفاق المال على هذه الصورة إنْ هُوَ إلا اعترافٌ فطريٌّ بمصدر المال وأنه مالُ الله، وأن الإنسان - وهو مستخلف في الأرض - مؤتمنٌ عليه، يصْرِفه بقانون، ويُمسكه بقانون ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [2]

وإذا كان للإنسان المستخلف بدايةٌ ونهاية، فإن للمال العارض بدايةٌ ونهاية، وقد يشهد الإنسانُ بنفسه مراراً بدايته ونهايته في يده. والمال إن تُرك في يد الإنسان فترة حياته - امتحاناً واختباراً - فإنه مفارقُه يوماً وليس معه من مصاحبته إلا أجرٌ أو وزر، وهو يُعَدُّ لوارثه وليس له.

والرسول ﷺ ينبه إلى هذا فيقول فيما **روى البخاري عن ابن مسعود** رضي الله عنه **قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ »** [3]

المال في ديننا وسيلةٌ لا غاية، لكنه عند أصحاب الحضارة المادية والفلسفية المادية غاية لا وسيلة؛ لأنه عندهم، والحياةُ مادة، المالُ عندهم غاية لا بأس أن تكون من وسائله الحيلةُ والخديعةُ، والغدرُ، والنفاق، وتسلط القوي على الضعيف. ناهيك عن الشحِّ به وإمساكه عن محتاج ومستحق.

أخي المسلم:

قلت: إن الإسلامَ هو دين الطهارة في شتى صورها، طهارة المال بالزكاة والإنفاق، وطهارة النفس بالتخلص من الشح والبخل، وهي تؤمن بربها وتثق في فضله

---

(١) المؤمنون : ٦٠، ٦١.

(٢) البَقَرَة : من الآية ٢١٥.

(٣) رواه البخاري.

وجزائه، وتعلم أن الأرض أرض الله، والإنسانُ يمر بها ولا يقيم، كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها، أيُّ برٍّ يترتب على هذا الإيمان ؟ وأيُّ رحمة تقوم بين الناس ؟ وأيُّ تعاطف يشملهم ؟ وأي إيثار تحققه هذه المعرفة ؟

يمكنك على ضـــوء هـــذا أن تدرك كلمةَ عُمَر بن الخطاب ﷺ وهو يقول: « **كنا نَعُد الإقراض على عهد رسول الله بخلاً** ».

أخي المسلم:

إن دين الإسلام هو دين الطهارة في شتَّى صورها؛ لأنه يقوم على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذه العقيدة تطهر النفس من رجس الشرك وظلام الإفك، وترفع من قيمة الإنسان فلا يذل أمام حجر، أو شجر، أو بشر، ولا تأسره شهوة، أو تُغَيِّرهُ منفعة.

وهذا الإيمان بالله هو أساس الطهارة في كل شئ. وإذا كان حديثُنا عن الزكاة - وقد عرفنا أنها تطهير ونماء - فإن إخراج الزكاة يُسْبَق كغيره بقيام الأصل في النفوس، ألا وهو الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لِيَتَطَهَّر المورد، فلا يُؤخذ المال إلا من طريق حلال. فلا يحلُّ عن طريق الربا، والسرقة، والاختلاس، والرشوة، والاحتيال- فإن هؤلاء وأضرابهم قد انتفى تقديرُ الأصل في نفوسهم - « **لا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ** » [1] فاختفى الطهر من حياتهم، ولا يتأتى الطهر لهؤلاء بالتصدق من المال الحرام. بل لا بُدَّ أن تطهر نفوسهم أولاً من لوثة الشرك، وتحيا قلوبُهم بشرف القصد، فيستقيم لهم ميزانُ التقدير، تقديرهم لأنفسهم أولاً وهم يبيعونها ببريق مفقود. وتقديرهم لخالقهم وهم يسيئون الظن به، فيتعجلون حظَّهم من الحياة ونصيبهم من الدنيا، وتقديرهم لحقيقة ما يُفتتنون به، وهم يتوهمون البقاء فيه أو الإبقاء عليه.

(١) متفق عليه.

سبيلُ الطهر لهؤلاء: زكاةُ النفوس قبل زكاة المال، بمعرفة الخالق والثقة فيه، لينتفي من أمرهم سوءُ الكسب وكذبُ التصدق على المخلوق « **إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا** »(١)

هذا الذي يُطلب تحقيقه لا يتمُّ إلاَّ بالإيمان. فقبل أن نطلب الدرهمَ الأعمى، أو الدينار الأصم، نَطلبُ الإيمانَ المستبصر المستنير؛ لنرى النظرة البارة، والبسمة الرقيقة المهذبة، والكلمةَ الطيبة مع التصدق العف الذي لا يقوم معه مَنٌّ ولا أذى، ولا رياء ولا سمعة. وهذا ما تطيب به نَفْسُ المتصدِّق عليه، وتقرُّ به عينُ المتصدِّق.

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾(٢)

وتعال بنا نتأمل حديث مَن **كان خُلُقُهُ القُرآن** ﷺ وهو يلفت أنظارنا إلى الأصل الدافع للإنفاق والصدقة.

وفي الحديث المُتَّفَق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه **قَالَ: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ** ﷺ **فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا ؟ قَالَ: أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلانٍ كَذَا، وَلِفُلانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلانٍ »**(٣)

تأمل قوله ﷺ: «**أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى**» تجد الدافع الثقة في الله، التي لو عُدِمت ما وقع التصدق ولا قام العطاء ولا تُقُبِّل العمل. إذ لولا الثقةُ في الله ما قام الغِنَى في النفس مهما كثر المال، ولم يظفر القلب بالطمأنينة مهما امتلأت اليدُ بالدرهم والدينار.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) البَقَرَة : من الآية ٢٧٣.

(٣) متفق عليه.

إن النفس إذا أيقنت بالله عرفت مصدر الخير، فأنفقت و لم تَخْش من ذي العرش إقلالاً، وإذا وثقت فيه، واطمأنت إليه أبصرت أمرها فلم تر لنفسها فضلاً فيما أحرزت أو أنفقت.

الفضل دائماً لله الغني الحميد.

« **أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى** » تخشى الفقر إن أنفقت؛ لوسوسة الشيطان وهو يعد بالفقر، وتأمل الغنى وتحرص عليه وتطمع فيه. عندئذ يكون الإنفاق بدافع مقاومة النفس والركون إلى الله وحده والثقة فيما عنده، أما أن يتصدق وقد بلغت الحُلْقُوم، فإنها حالة مَن أيِسَ من الصحة ورأى أن المال لغيره.

تأمل دائماً دوافع العمل، لتعرف أن القبول والمكانة عند الله تتوقف على مقدار الثقة في الله، وكون العمل له وحده لا يُبْتَغَى به إلا وَجْهُهُ ولا يُرْجَى سواه.

وبالثقة يتم البذل والتصدق، بل يَتحَقَّقُ البر والإيثار ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩** ﴾ (١)

أخي المسلم:

إن جنة الله لمن آمن به، ووضع عطاءه حيث أحب ﴿ ۞ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ** ﴾ (٢)، وإن سعادة

---

(١) الحشر : من الآية ٩.

(٢) التوبة : من الآية ١١١.

الناس وفلاحهم مرتبطان بالإيمان والعمل ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ ﴾ (١)

بهذه الصفات وغيرها يرثون الفردوس بفضل الله ورحمته ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ (٢)

إن إنفاقاً بلا إيمان لا خير فيه، وإيماناً بلا إنفاق الشرك معه.

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (٣)

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ ﴾ (٤)

إن الممتنع عن الزكاة لم يضر غيرَ نفسه ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٨٠ ﴾ (٥)، ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥ ﴾ (٦)

---

(١) المؤمنون : ١-٤.

(٢) المؤمنون : ١٠-١١.

(٣) فصلت : من الآية ٦، من الآية ٧.

(٤) الحديد : من الآية ٧.

(٥) آل عمران : من الآية ١٨٠.

(٦) التوبة : ٣٥.

إن قبْضَ اليد عن أداء الحق دليلُ النفاق وعدم الثقة في الله والخروج على طاعته ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [1]

أخي المسلم:

إنك مُخْتَبَرٌ بالمال، مختبر بالحياة، فاتق الله ولا تنس الغد. **روى مسلم عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ »** [2]

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.

ولنا بعد هذا أن نتساءل:

كيف يفرض الإسلام الزكاة ويُوجبُ الإنفاق، مع أنه يدعو إلى العمل، ويحث عليه، ولا يرضى لأبنائه أن يقعدوا أبداً عن طلب الرزق، وهذا وحده كاف للضرورة مُغْنٍ عن المَسألة، مذهب للفاقة ؟

ولكي نجيب عن هذا نُحب أن نذكر ما يعرفه كلُّ مسلم من أنَّ الإسلام لا يرضى لأبنائه أن يقعدوا عن طلب الرزق وهم يعلمون أن السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة.

---

(١) التوبة : ٦٧.

(٢) رواه مسلم.

فالجالس في المسجد في غير أوقات الصلاة يُسأل: من يعولك ؟.. فيقول أخي: فيقال له: أخوك أعبد منك.

وفي يوم الجمعة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ ﴾ (١)

إن الإسلام دين الفطرة ودين الحياة، فهو لا يفرِّق بين صلاةٍ بارة وسعي مشكور كُلُّ عمل مشروع دينٌ ما دام مرتبطاً بالإيمان واليقين.

لا تواكل ولا كسل، بل سعيٌ وعمل ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥ ﴾ (٢)

والإسلامُ - بما افترض من زكاة، وما أوجب من صدقة - لم يفترض في مجتمعه أنه مجتمع متسول ينتظر اللقمة واللقمتين والتمرة والتمرتين.. بل أوجب أن يكون مجتمعاً عاملاً جادًّا متكافلاً، لقد فرض الزكاة وهو يقول: « **الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى...وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِه اللَّهُ** » (٣)

---

(١) الجمعة : ٩، ١٠.

(٢) التوبة : ١٠٥.

(٣) رواه البخاري.

والرسول ﷺ يقول فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: « لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ » (١)

ويقول ﷺ: « لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنْ الْمِسْكِينُ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ » (٢)

العفة بالعمل، والتعفف مع العلة والعجز، ميزانُ الخُلُق الإسلامي في منهجه المالي ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (٣)

وانظر إلى توجيه مَنْ كان « خُلُقُهُ القُرآن » ﷺ روى البخاري عن حَكِيم ابْنَ حِزَامٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: « يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ. الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى. قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا. فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا. فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ. فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) البَقَرَة : من الآية ٢٧٣.

اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ »[1]

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن ثَوْبَان ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ ثَوْبَانُ: أَنَا. فَكَانَ لا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا » [2]

وروى أبو داود عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ أَوْشَكَ اللَّهُ لَهُ بِالْغِنَى إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ أَوْ غِنًى عَاجِلٍ » [3]

أخي القارئ:

أنت ترى من بيان من كان « خُلُقُهُ القُرآن » ﷺ غايةَ الحثِّ على التعفف وأخذِ الأسباب إلى الاستغناء « **ومن أمسى كالاً من عمل يده بات مغفوراً له** » [4]

ولكن قد يقع العجز وتمنعُ العلة من الكسب، قد يموت العائلُ وله جياع. قد تأتي عاديات الأيام على ثمرة الكسب والعمل. بل قد يمتد بك السعي إلى دار غير دارِك وأرضٍ ليس بها أهلُك وصحبُك، والمالُ قد نَفَد وأنت تبغي الأوبَةَ إلى الصحب والأهل.

قدْ وقد، مما لا يحصيه العد من حوادث الزمن وعاديات الأيام وصروف الدهر، فهل يُترك هؤلاء للأحداثِ تبطش بهم، وللمصائب تنكس رؤوسهم. ولصُروف الزمن تَهدم بنياتهم. وكل فردٍ مُعَرَّض لذلك ؟ أوْ لا بُدَّ من التكافل من أفراد الأُمة. فلا بُدَّ من فرض الزكاة ووجوب الإنفاق.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط.

إننا نُنشئ المستشفيات، نملأ مخازنها بالدواء، وساحاتِها بعربات الإسعاف تتأهب لكل طارئ. فتسرع لإسعاف الجريح وإغاثة الملهوف، هذا منطق الفطرة وداعي الضرورة. أفلا تفرض الزكاة لتبقى الأمة. إي والله لتبقى. إذ لا بقاء لأمة لا تماسك للبناتها ولا تعاون ولا تراحم بين أبنائها.

أخي المسلم:

نتعرف إن شاء الله على موقف الصديق من مانعي الزكاة حفاظاً على هذه الأمة أن تقع في التهلكة ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (١)

أيها القارئ الكريم:

ذكرنا من قبل تشبيه رسول الله ﷺ أمرَ المؤمنين في توادِّهم وتعاطفهم وتراحمهم بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الأعضاء بالحمَّى والسهر.

فلم أرَ أعظمَ ولا أقوى ولا أكرمَ من هذا التماسك والتعاون في طبيعة الجسد الواحد. فمعلومٌ أن الجسدَ إذا أُصيبَ جزءٌ منه تألَّم كلُّه، ليس تألماً سلبياً بالدموع والكلمات الحزينة. وإنما هو تألمٌ إيجابي يظهر فيما تفعله الأعضاء من بذْل ما لديها، وما تقدمه الخلايا من إشارات وإمدادات وحراسة وترقب.

يُشغَلُ الجسد كلُّه بالجزء المتألم. فلا تزال الإشارات تعمل، والإمدادات تتوالى، والحراسُ يسهرون على الجزء المصاب يقدمون إليه ما يصل من عطاء حتى يعود سليماً معافىً كما كان.

---

(١) البَقَرَة : ١٩٥.

وهذا بالضبط حالُ المؤمنين في توادِّهم وتعاطفهم وتراحمهم، إن نزلت الفاجعة بأحدهم فإنما هي فاجعتهم جميعاً. وإن اعْتُدِي على جزء من أجزائهم، عملت الإشاراتُ، وأقبلت الإمداداتُ من كلِّ مكان، تحرسُ وتحمي، وترد وتدفع، حتى يظل الجسد في مجموعه معافىً سليماً، وتبقَى الأُمَّةُ - في مَجموُعها متوادة متعاطفة - متعاونة متراحمة.

وتلك هي الأمةُ التي قال الله عنها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١)

ومن هنا تدرك لم قاتل أبو بكرٍ الصديق ﷺ مانعي الزكاة، وسوَّى بينهم وبين المرتدين في حروب الردة، ذلك كان حماية للأمة الإسلامية أن تنفك روابطُها، أو ينفرطَ عقدُها، وتأديباً لهؤلاء الذين غَفُلوا عن مصدر المال، فمنعوا حقاً يجب أن يصل إلى أصحابه، والمال - كما قلنا من قبل - هُو مال الله، والعبد مستَخْلَف. فمن مَنَعَ حقَّ الله الذي أوجبه في المال فامتنع عن الزكاة، وجب أن يُقاتَلَ عليها؛ لأنه بذلك يفتح باباً واسعاً لقتل نفوس بريئة قد يكون فيها طفلُه وهو لا يدري، وقد يكون هو نفسه من حيث لا يحتسب، إذ لا يعلم أحدٌ ما يُبَيِّتُهُ القدر وما يأتي به الغد، وكم من غني بات فقيراً، وكم من وليد رُبِّي يتيماً ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ ﴾ (٢)

نعم أدرك أبو بكر ﷺ ما ينتهي إليه أمر الأمة إن هو ترك هؤلاء الذين يمنعون الزكاة يعملون على هدم الأمة وتحطيم روابطها.

(١) آل عمران : من الآية ١١٠.
(٢) النِّساء : ٩.

ولما عارضه عُمر بنُ الخطاب ﷺ. وقال: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ** » (١)

فقال: والله لأقاتلن مَن فَرَّق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، متى استمسك السيف بيدي، ولو قاتلتهم وحدي.

فقال عمر ﷺ: فوالله ما هو إلاَّ أن شرح اللهُ صدرَ أبي بكر ﷺ فعرفت أنه الحق.

أخي القارئ:

إن كلَّ ما له بداية لا بُدَّ أن ينتهي إلى نهاية، والله قد جعل لنا أجلاً محدوداً قدَّره واستأثر بعلمه ﴿ **وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾** ﴾ (٢)

وإن الغفلة إذا سيْطرت على الإنسان، استمسك بالفاني وَأوهَم نفسَه به، أو ظن البقاء فيه، وعندما ينبهه الموتُ إلى الحقيقة يطلب التأخير أو التأجيل؛ لتصحيح خطأ أو إصلاح فاسد.

فلا يُجابُ؛ لأن الأجل المقرر في علم الله لامتحانه واختباره قد انقضى، ولذا كان التعجيلُ بالخير والاستباق إليه أمراً ضرورياً لمن يرجو الفلاح والنجاة !

---

(١) متفق عليه.

(٢) لقمان : من الآية ٣٤.

﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾[1]

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾[2]

إن المال ليس بيدك، وإنما هو بيد الله ﴿ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3]

من مات لا يرجع، ومن ذهب فالمال لغيره يرجع ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ ﴾[4]

أخي المسلم:

انظر ما كان عليه رسول الله ﷺ وقد كان « خُلُقُهُ القُرآن ». جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله، فقال: « **ما عندي شئ ولكن ابتع عليَّ، فإذا جاءنا شئ قضيناه** » فقال عمر: ما كلفك الله مالا تَقْدرُ عليه، فكره النبي ﷺ ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنْفِق ولا تَخَفْ من ذي العرش إقلالاً، فتبسم النبي ﷺ، وعُرِفَ البشر في وجهه، وقال: « **بهذا أُمرت** »

هذا حال الرسول ﷺ في ثقته بربه، وتنفيذه لأوامره، وسروره أن يحقق ما أُمِرَ، وأن يكون حيث أحب الله.

---

(١) البَقَرَة : من الآية ١٤٨.

(٢) المنافقون : ١٠، ١١.

(٣) البَقَرَة : من الآية ٢٤٥.

(٤) الليل : ١١.

إن الإيمان حقيقة تُرى في السلوك ويُعبِّرُ عنها سعيُ الإنسان وعملُه.

أخي المسلم:

إن أخطر ما يُصاب به الإنسان الغفلة التي تغلق عينه عن الغد فيتوهم الفاني باقياً ولا يبصر إلا ما في يده.

والله يأمرنا أن نرقب الغد، وأن نستعد له بخالص القصد وصادق العمل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ [1]

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

❁❁❁

(١) الحشر : ١٨.

obeikandl.com

الطريق إلى الفردوس

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴾

يتميز الإنسانُ عن غيره من المخلوقات بما وهبه الله من أسباب العلم والمعرفة، ولذا خوطب بالرسالات، وكُرِّم بأنواع من التكاليف تعصم زمنَه من العبث واللغو، وقلبَه من الريب والزَّيْغ، وجوارحَه من العصيان والفسوق، فحيث يمضي يجد دلالات وعلامات تَدُلُّه على الطريق.

وعند التأمل نجد أن كلَّ ما حُرِّم على الإنسان فيه إساءةٌ له وإلى الناس من حوله.

الكذب حرام، لأنه يخل بالمروة، ويُسقِط الكرامة، ويمتد إلى حياة الناس بتدمير الروابط وتقطيع الصلات.

الزنا حرام - وفيه من الإساءة إلى كرامة الإنسان ما فيه - حتى قالت العربية وهي تبايع رسول الله ﷺ بيعة النساء، مُسْتَنْكِرَةً هذا الفعل على الحرة الكريمة: أوَ تَزْنِي الحُرَّةُ ؟.

أما امتداد الإساءة إلى الناس فهو إساءة إلى أغلى شئ في الحياة.. وهو العِرْض الذي لو قُتل دونه فهو شهيد.

وما من شئ حرَّمه الله إلا وترى فيه بالغَ الإساءة للنفس وللمجتمع.

فمن رحمة الله بالناس إذن - بل من تكريمه لهم - أنْ أَحَل لهم الطيبات وحرَّم عليهم الخبائث.

والأعمال الطيبة لا تكون إلا من الطيبين، والمؤمن أطيب من عمله.

والأعمال الخبيثة لا تكون إلا من الخبيثين، والكافرُ أخبثُ من عمله.

والخبيثُ: ما يُكرهُ رداءَةً وخَسَاسَةً، مَحْسوساً كان أو معقولاً، وذلك يتناول الباطلَ في الاعتقاد، والكذبَ في المقال، والقبيح في الفعال.

والطَّيِّب متميز بخصائصه، والخبيثُ منبئ عن رداءته وخَسَاسَتِه ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[1]

والله – جَلَّ وَعَلاَ – يختبر الناس بأنواع من التكاليف يأمرهم فيها بالطيب وينهاهم عن الخبيث؛ ليَميزَ أمرهم فلا يختلط هذا بذاك.. وعن طريق هذه التكاليف يكون مصيرهم هناك ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[2]، والله طيب لا يقبل إلا طيباً ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[3]، ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[4]، ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾[5]

---

(١) المائدة : ١٠٠

(٢) الأنفال : ٣٧.

(٣) فاطر : من الآية ١٠.

(٤) النحل : ٣٢.

(٥) الحج : ٢٤.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[1]

ولذا فإن من صفات المؤمنين أو من خصائصهم التي أُورثوا بها الفردوس هم فيها خالدون ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2]

إن المؤمنين طيبون، وأعمالهم طيبة، إنهم لا يقترفون الخبائث ولا يُصرون على المعاصي، وإذا رأيت الرجلَ يترك ما أحلَّ الله من الطيبات إلى ما حرم من الخبائث، فاعلم أن شُعْلة الإيمان قد انطفأت في نفسه وهو يزاول المنكر والفساد، **قال** ﷺ: « **لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ** » [3]

ومما رآه الرسول ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج، وسأل عنه جبريل فأجابه. رأى قوماً بين أيديهم لحمٌ نضِجٌ في قِدْر، ولحْمٌ آخرَ نَيِّئ قذِرٌ خبيث، فجعلوا يأكلون من اللحم النِّيِّئ الخبيث، ويَدَعُونَ النَضيج الطيب !!

قال جبريل: هذا الرجل من أمتك، تكون عنده المرأةُ الطيبةُ، فيأتي امرأةً خبيثةً فيبيتُ عندها حتى يُصبح، والمرأة تقومُ من عند زوجها حَلاَلاً طيِّباً. فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح.

---

(١) النحل : ٩٧.

(٢) المؤمنون : ٥-٧.

(٣) رواه البخاري.

أخي القارئ:

إن من صفات المؤمنين أو من خصائصهم أنهم يحفظون فروجهم ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ ﴾ (١)

وقد منع الإسلامُ كلَّ سبب يؤدي إلى الفساد أو يُقرِّب من المنكر، فقبل أن يأمر بحفظ الفروج أمر بغض البصر؛ حتى لا تشتهي النفس ما ليس لها فيستدرجها الشيطان ويأمرَها بالفحشاء ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ ﴾ (٢)

والمؤمن يعلم أن الله يعلم السر وأخفى، فهو لا يُبْدي وَرعاً ويخفي سوءً، وإنما يقوم الطُّهر في نفسه فلا تنطوي على منكر، ولا يُصر على فعل سوء.

إنه الإيمان بالله الذي يحفظ العين من الخيانة، واللسانَ من الكذب، والقلوبَ من النفاق بما يحقق من خشية الله ومراقبته.

قلت: إن الإسلام يمنع كلَّ سبب يؤدي إلى الفساد أو يقربُ من المنكر.

وهذا بيان من **كان خُلُقُهُ القُرآن** ﷺ ماذا يقول في الحديث المتفق عليه **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ**

(١) المؤمنون : ٦.

(٢) النور : الآية ٣٠، من الآية ٣١.

الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ. قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ » (١)

فالإسلام يمنع كل سبب من الأسباب المؤدية إلى المنكر أو المقربة من الفساد. فالمؤمنون وقد وصفهم الله بأنهم لفروجهم حافظون، قد أمرهم قبل حفظ الفروج بغض الأبصار، وقد قرأت بيان مَن كل « خُلُقُهُ القُرآن » ﷺ في الحديث المتفق عليه وهو يحذر أصحابه من الجلوس في الطرقات. ولما ذكروا حاجتهم إليها. ذكَّرهم بحقِّ الطريق. وحقُّ الطريق كما ذكره الرسول ﷺ لأصحابه: « **غَضُّ البَصَر، وكفُّ الأذى ، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر** »

وروى مسلم عن أبي طلحة زيد بن سهيل ﷺ قال: « **كُنَّا قُعُودًا بِالأَفْنِيَةِ نَتَحَدَّثُ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْنَا فَقَالَ: مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعُدَاتِ ؟ اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعُدَاتِ** (٢) **فَقُلْنَا: إِنَّمَا قَعَدْنَا لِغَيْرِ مَا بَاسٍ، قَعَدْنَا نَتَذَاكَرُ وَنَتَحَدَّثُ. قَالَ: إِمَّا لا فَأَدُّوا حَقَّهَا: غَضُّ الْبَصَرِ، وَرَدُّ السَّلامِ، وَحُسْنُ الْكَلامِ** » (٣)

وروى أبو داود عَنْ جَرِيرٍ ﷺ **قَالَ:** « **سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجْأَةِ، فَقَالَ: اصْرِفْ بَصَرَكَ** » (٤)

كلُّ سبب يردي إلى المنكر ترى الإسلام يُحذر من الاقتراب منه، ومَن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه: « **أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ** » (٥)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الصُّعُدَات : الطرقات، أي التي يصْعد فيها أصحابُ الدور لحوائجهم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) متفق عليه.

وفي الحديث المُتَّفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلاَمُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ » (١)

وحتى لا يقع المسلمُ في هذا المنكر عليه أن يتجنب الأسباب المؤدية إليه وأن يطهرَ قلبه دائماً بذكر الله حتى يثبت على الحق ويداومَ على الطهر ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)

ولقد كان رسول الله ﷺ المثلَ الأعلى في البعد عن أسباب الفساد والمحافظة على التصدي لها، ففي الحديث المتفق عليه عن عائشة - رضي الله عنها قالت: ما لمسَتْ يَدُه ﷺ يَدَ امْرَأَةٌ قط.

وعلى المؤمن أن يبتعد عن المواطن التي تجعل الناس يرتابون فيه، فإن رسول الله وهو - الطَّاهر المطَّهر - يعلمنا ألا نترك للناس مجالاً للشك في أعراضنا، فقد قال ﷺ لمن رآه واقفاً مع صفية أم المؤمنين « **إنها صفيةُ بنتُ حُيَيٍّ** ».

صلى الله عليكَ رسولَ الله، وهل يَشُكُّ أحدٌ في طُهْرِك وعفتك ؟ لكنَّه ﷺ يعلمنا ألا ندع للشيطان مجالاً للدخول على نفوس الناس بسوء الظن بهم أو الشك في أحوالهم.. ذاك سلوكٌ من **كان خُلُقُهُ القُرآن** ﷺ.

وقد عاش مجتمعنا الإسلاميُ وهو يُحسن القدوة به ﷺ طَهوراً عفيفاً قويَّ اللبنات. وعندما أريد للمجتمعات الإسلامية أن تتمزق، وأن يُحقّق الأعداء أغراضهم في أرضها

(١) رواه مسلم.

(٢) الرّعد : ٢٨.

سُلّطتْ عليهم الشهوات، ووقع التقليد الأعمى لعادات القوم، وأُدْخِلَ على المسلمين أمورٌ وأمورٌ تتنافى مع طُهر دينهم وسموِّ إسلامهم.. فنال العدو منهم كلَّ نَيْلٍ..

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ (١)

أنزله وتكفل بحفظه، وجعل في رسوله ﷺ أُسوتنا وقُدوتنا وهو قائم فينا بسنته - فضمن لنا بذلك دائماً أسباب التصحيح والعود إلى مواطن العزة والعفَّة.

وعلى أمتنا الإسلامية - وهي تنشد سبيل عزِّها وتطلب النصر من ربِّها - أن تتوقَى أسباب الفساد التي يريدُ أعداؤها أن يمكّنُوا لها في ديارنا باسم الحضارة والمدنية والتقدم. وعليها أن تقيس أحوالها دائماً بالميزان الذي لا يَضِلُّ ولا يُضَلُّ من كتاب الله وسنة نبيِّه « **تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ** » (٢)

وعلى المسلمين - وهم يحرصون على مرضات ربِّهم - أن يبتعدوا عما يغضبه، وأن ييسروا فيما بينهم دائماً أسباب الحلال، فإن تعسير أسباب الحلال لا يَخْدُم إلا قضية المنكر والفساد، ومن تيسير أسباب الحلال عدمُ المغالاة في المهور، والمبالغة في الكماليات التي تقف حائلاً دون الزواج.

فإنَّ من الخطر الداهم على أمتنا الإسلامية أن تُعَسِّر أسباب الحلال وأسْبَابُ الحرام تنتشر من حولنا، لتحطم أسباب العفة والطُّهر في نفوسنا.

ومن الخطأ بل من الخطيئة أن يعيش أبناؤنا أو بناتنا في ظل التقليد الأعمى لعادات الغير أو تقاليده، وأن يعتبروا ذلك من الحضارة والتقدم.

فلقد وصل الأمر بالتقليد إلى أن تشبه الرجالُ بالنساء والنساء بالرجال، وقد لعن الرسول ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، وفي رواية: « **لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ** ﷺ

---

(١) الكهف : ١.

(٢) رواه مالك في الموطأ.

الْمُتَشَبِّهِينَ مِنْ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنْ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ » [1]

وروى أبو داود بإسناد صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: « لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ » [2]

إن الشخصية الإسلامية المتميزة تنشدُها الدنيا لتصحح بها واقعاً تتردى فيه الإنسانية جميعاً، ولن يُغني في أمر الإصلاح تَقَدُّمٌ ماديٌّ يتخلف معه الإنسان بقِيَمِه وأخلاقه. فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت..

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » [3]

✿✿✿

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) مسند الشهاب.

obeikandl.com

الطريق إلى الفردوس

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾

لا شيء أدلّ على إيمان المؤمن من أداء الأمانات وحفظِها، والوفاءِ بما عاهَدَ اللهَ والناسَ عليه. ومن صفاتِ المؤمنين الذين يرثون الفردوس أنهم حافظون لأماناتهم وعهدِهم ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [1] أي: قائمون بحفظ ما اؤتُمنوا عليه، مُوفون بما عاهدوا اللهَ والناسَ عليه.

والأمانات تارة تكون بين العبد وربِّه،وتارة تكون بين الناس بعضِهم مع بعض.وكذلك العهود « أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ » [2]

والله – جَلَّ وَعَلاَ – يأمر بأداء الأمانات في كثير من الآيات:

ففي سُورة البقرة ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ [3]

وفي سورة النِّساء: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [4]

وفي سورة الأنفال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [5]

---

(١) المؤمنون : ٨.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) البقرة : من الآية ٢٨٣.

(٤) النِّساء : ٥٨.

(٥) الأنفال : ٢٧.

والأمانات تشمل جميع الحقوق الواجب على الإنسان أداؤها. وحقُّها أن تُؤَدَّى كاملةً غيرَ ناقصة، في أوقاتها المحددة لها بلا مماطلة أو تسويف.

إنَّ الصلاة أمانةٌ يجب أن تؤدَّى في أوقاتها بشروطها وواجباتها، وأن تقام كما علَّمنا رسول الله ﷺ في طمأنينة وخشوع.

والصوم أمانةٌ، وجميع الفرائض التي أمن الله عليها العباد. وجميعُ التكاليف الشرعية أمانات يجب أن تُؤَدَّى كما أمر الله ﷻ، وكذلك جميع ما اؤتُمن الإنسان عليه من حقوق الناس وأموالهم.

إن الخيانة في الأمانة من خصال النفاق، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ** » [1]، زاد في رواية مسلم: « **وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ** » [2]

وروى مسلمٌ عن حُذَيفَةَ وأبي هريرة – رضي الله عنهما – قالا: قال رسول الله ﷺ: « يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمْ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ ؟! لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ. قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا. فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللَّهِ وَرُوحِهِ. فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ،

(١) رواه البخاري

(٢) رواه مسلم.

فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً،فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ. قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ. حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا. قَالَ: وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ. وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا »[1]

أخي المسلم:

أرأيت سرعة السير على الصراط، إنما على حسب المراتب والأعمال ؟

أرأيت أين تقف الأمانةُ ؟ إنها تقفُ من الصراط هي والرحمُ على جانبيه، وما ذاك إلا لعِظَم أمْرِهما، وأن الإنسان يُطلب بهما، وإن نجاته تتوقف عليهما، فالرَّحِم مَن وصلها وصله الله، ومَن قطعها قطعه الله، والأمانة من أداها وحفظها كان له الأمن. إنهما يقومان من الصراط على جانبيه ليطالبا من يُريدُ الجَوَاز بحقهما. وحق الأمانة أن تُؤَدَّى وتُحفظ، وحقُّ الرحم أن تُوصل ولا تُقطَع.

أخي المسلم:

تعال بنا إلى مَن **كان خُلُقُهُ القُرآن** ﷺ ولنا فيه الأسوةُ الحسنة. لقد عُرِفَ بالأمانة حتى لُقب بها. إنه الأمين. أمينٌ في الأرض وأمينٌ في السماء. كان ﷺ لا يلهيه عن أداء الأمانة خَطْبٌ نازل، أو خَطَر مُحدِق، ألم تُجْمِعُ قريشٌ على قتله، وقد نَالَتْ منه ومن أصحابه، وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم لأنهم يقولون: « **ربُّنا الله** » ؟ ألم تحاصر داره ؟

---

(١) رواه مسلم.

لو أن شخصاً مكانه ﷺ - أيَّ شخص - ألا يستبيحُ لنفسه ولأصحابه أيَّ شيء يقع تحت يديه من مال قريش التي أخذت من أموال أصحابه وأخرجتهم من ديارهم ؟ مَنْ هذا الذي يذكر ودائع الناس في لحظة قد أجمع فيها قادة الناس على قتله؟

إن الصادق الأمين ﷺ هو الذي يفعل هذا في اللحظة التي تحاصَرُ فيها داره، وتُشْهَر سيوفُ الغدر لقتله، يرسل إلى ابن عمِّه الفتى الشاب عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه يأمُرُه أن يبيت مكانه؛ ليصبحَ فيرُدَّ الودائع إلى أهلها والأماناتِ إلى أصحابها.

نعم لقد كان « خُلُقُهُ القُرآن » ﷺ.

وإن خُلقاً كهذا لا بُدَّ أن يكون صاحبُهُ قدوةَ الخلق أجمعين، ورحمةَ اللهِ للعالمين.

أما أمانات الرسالة والدين فقد أَدَّى الأمانة، وبلغ الرسالة، وكان أخشى الناس لله وأتقاهم له، وأحسنهم خُلقاً، وتلك شهادة الله له ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤** ﴾ (١)

❁❁❁

(١) القلم : ٤.

الطريق إلى الفردوس

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

إن المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح - قد ذكر - جَلَّ وَعَلاَ - من أولى صفاتهم أو خصائصهم ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ [1]، وفي آخرها ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾[2]

وفي مجيء الصلاة في أول أمرهم خشوعاً وتضرعاً، وفي آخرِ صفاتهم أداءً ومحافظة. دلالةٌ على عظمِ هذه الفريضة ومكانتها.

إنها عماد الدين، من أقامها فقد أقامه، ومن ضيَّعها فقد ضيَّعه. بل أفضل الأعمال، وأول ما يحاسب به الإنسان يوم القيامة فإنْ صَلَحت، فقد أفلح وأنجح، وإن فَسَدت، فقد خاب وخسر.

روى مسلمٌ عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ » [3]

وقد « كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لاَ يَرَوْنَ شَيْئًا مِنْ الْعَمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلاَةِ » [4]

---

(١) المؤمنون : ٢.

(٢) المؤمنون : ٩.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الترمذي.

وفي الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود ﷺ قال: « سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا. قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ. قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي »[1]

والمحافظة على الصلاة: أداؤها في أوقاتها، ولا يحافظ عليها إلا مؤمن ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾[2]

فاحذر أخي المسلم أن تفرِّط في أمرها أو ترائي الناس بها، فإن الله - جل وعلا- يقول: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾[3]

قال ابن عباس وغيرُه: يعني المنافقين، الذين يصلون في العلانية ولا يُصلون في السر. ولهذا قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾[4] الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية كما قال ابن عباس، أو عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً؛ فيُخرجها عن وقتها بأكمله.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « تِلْكَ صَلاَةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لاَ يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً »[5]

---

(١) متفق عليه.

(٢) النّساء : من الآية ١٠٣.

(٣) الماعون : ٤-٧.

(٤) الماعون : ٤.

(٥) رواه مسلم.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ (١)

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢)

إن من أولى جرائم المجرمين أنهم لم يكونوا من المصلين..

أخي المسلم:

إن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، والله – جَلَّ وَعَلاَ – يقول:

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣)

وانظر إلى حال من كان « خُلُقُهُ القُرآن » ﷺ « كَانَ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى » (٤)

عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: « وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلاَّ نَائِمٌ إِلاَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ يُصَلِّي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ » (٥)

---

(١) النساء : ١٤٢.

(٢) المدثر : ٣٨- ٤٣.

(٣) البقرة : ٤٥، ٤٦.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) رواه أحمد.

لقد جُعلت قُرَّةُ عينه فيها: « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ »[1]، وكان يقــول : « يَا بِلالُ، أَقِمْ الصَّلاةَ، أَرِحْنَا بِهَا »[2]

روى الطبراني عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من صلى الصلاة لوقتها، وأسبغ لها وضوءها، وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها، خرجت وهي بيضاء مسفرة، تقول: حفظك الله كما حفظتني »[3]

وفي رواية عند البيهقي: « من توضأ فأبلغ الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، فأتم ركوعها وسجودها والقراءة فيها،قالت الصلاة: حفظك الله كما حفظتني، ثم صُعد بها إلى السماء ولها ضوء ونور،ففتحت لها أبواب السماء حتى تنتهي بها إلى الله فتشفع لصاحبها »[4]

إن الصلاة نورٌ كما ورد في صحيح مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ – أَوْ تَمْلأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاَةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا »[5]

وفي المسند عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رضي الله عنهما – عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلاَةَ يَوْمًا فَقَالَ: « مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهَانٌ وَلاَ نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ

---

(١) رواه النسائي.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط..

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٥) رواه مسلم.

الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ » [1]

إنها نور للمؤمنين في الدنيا؛ لأنها صلةٌ بين العبد وربِّه ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [2]، ونورٌ لهم في الآخرة ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [3]

كان أبو الدرداء يقول: « صَلُّوا ركعتين في ظُلَمِ الليل لظُلْمة القبور »، وقد صدق. فإن من إحسان المتقين الذين فازوا بجنات النعيم أنهم ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [4]، ولا شيء آنسُ لنفس المؤمنين من ركعات في جوف الليل ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [5]

انظر إلى حال كل مَن خُلُقُهُ القُرآن ﷺ كيف تطيُب نفسه بأمر ربه ؟

في الحديث المتفق عليه عن عائشة – رضي الله عنها –: ((أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنْ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ: أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا

(١) رواه أحمد.
(٢) النُّور : من الآية ٤٠
(٣) الحديد : ١٢.
(٤) الذاريات : ١٧، ١٨.
(٥) الإسراء : ٧٩.

شَكُورًا » [1]

أخي المسلم:

احذر أن تكون من الغافلين، واحذر أن يُغْرِيَك الشيطان بطُول ليل وطِيب نوم. في الحديث المتفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: « يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ. فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ،فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ،وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ » [2]

❁❁❁

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٢) متفق عليه.

obeikandl.com

الفردوس للمؤمنين
وقد اكتملت صفاتهم

إن الله كتب الفلاح للمؤمنين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾[1]

ومن رحمة الله أن بيَّن خصائصهم؛ ليَتَّبِع مَنْ يَتَّبعُ سبيلَهم، سبيلَ النجاة والفلاح. ولا نجاة إلا باتباع طريقهم، ولا فلاح إلا لمن كان منهم ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥ ﴾[2]

إن المؤمنين متميزون بصفاتهم وخصائصهم، قائمون بما أوجب الله عليهم، خاشعون في صلاتهم محافظون عليها، بعيدون عن لغو الحديث وباطله معرضون عنه، مؤدون حق الله في أموالهم، حافظون لفروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، أوفياءُ إذا عاهداو، أمناءُ إذا ائتمنوا، على ربِّهم يتوكلون، وعلى صلواتهم يحافظون.

إنهم دائماً حيث يرضى الله لهم.. يُخْضِعُون هواهم لطاعته، ولا يَرونَ لأنفسهم حياة ولا نجاةً إلا بالصدق في اتباع دينه..

المؤمنون بمقوماتِهم وخَصائصهم، واتِّباعهم الحق والتزامهم الصدق محارَبون من أهل الباطل والفساد. وهل يضيق الباطلُ إلا بالحق ؟.. وهل يتبرم أهل الفساد إلا بأصحاب التُّقى والصلاح ؟. لذا فإن الصادقين في إيمانهم لا ينتهي كيدُ أهل الباطل

(١) المؤمنون : ١.

(٢) النِّساء : ١١٥.

بهم.. وهم بدافع من إيمانهم يحملون هموم الناس من حولهم، ويهتمون بأمر المسلمين، ويَنْشُدون نصرتهم.

ولن تكون الدنيا دار جزاء لهم.. وهم لا ينشدون الراحة فيها، ويعلمون ما لاقى الرسل والأنبياء والمصلحون من كيد أهل الكفر والضلال. وسعادتهم في الحياة في معرفتهم للحق واطمئنانِ قلوبهم له. فهم في أشد ساعات البلاء أو الكرب يشعرون بغير ما يشعرُ به الناس، يشعرون أنهم يستندون إلى قوة لا تُغْلَبُ، فهم يخشون الله وحده ويرجون رحمته.. ويعلمون علم اليقين أن الغلبة للإيمانِ، والفلاح للتقوى، فلا تضعف نفوسُهم، ولا تتوزع قلوبهم وهم يقرءون كلام ربهم ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (١)

إن أمرهم كلَّه خير.. وهم من خيرهم في خير دائماً.. إنهم يعلمون أنهم يمرون بالحياة ولا يقيمون، فقلوبُهم تتعلق بِدُورهم هناك. ونفوسهم تتوجه إلى مرضات الله دائماً. وهذا يملأ قلوبهم دائماً بالعزة والرضى ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢)

❁❁❁

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (٣) أولئك هم الأحقاءُ بأن يُسَمُّوا وُرَّاثاً دون من عداهم ممن ورث من

(١) آل عمران : ١٣٩.
(٢) النحل : من الآية ٩٦.
(٣) المؤمنون : ١٠، ١١.

رغائب الأموال والذخائر، ولكن أيَّ شئ يرثون ؟ إنهم لا يرثون متاعاً فانياً، ولا عَرَضاً زائلاً، إنهم يرثون الفردوس أعلى الجنات أو أفْضَلَهَا. دارَ الخلود بلا فَناء، والأمن بلا خوف، والاستقرار بلا زوال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴿١٠٨﴾ ﴾ (١)

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢)

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٣)

كثيراً ما تسيطر الغفلةُ على الناس فينسون الغد ولا يستعدون له، والله – جَلَّ وَعَلاَ – يذكر المؤمنين به، ويدعوهم إلى عدم الغفلة عنه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا

(١) الكهف : ١٠٧، ١٠٨.
(٢) الشورى : من الآية ٢٢.
(٣) الزخرف : ٦٨ – ٧٢.

تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١)

في الحديث المتفق عليه عن أنس ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: « اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَهْ » (٢)

وروى مسلمٌ عن المُسْتورِد بن شدَّاج ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « ما الدُّنيا في الآخرة إلا مثْلَ ما يجعلُ أحدُكم إصْبَعَهُ في اليمِّ فلينْظر بم يرجعُ » (٣)

إن الفوز هو الفوزُ بالجنة ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (٤)

عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: « سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يَدْعُو يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَمَامَ النِّعْمَةِ. فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ تَمَامُ النِّعْمَةِ؟ قَالَ: دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا أَرْجُو بِهَا الْخَيْرَ. قَالَ: فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ دُخُولَ الْجَنَّةِ وَالْفَوْزَ مِنَ النَّارِ. وَسَمِعَ رَجُلاً وَهُوَ يَقُولُ: يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ، فَقَالَ: قَدْ اسْتُجِيبَ لَكَ فَسَلْ. وَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الصَّبْرَ، فَقَالَ: سَأَلْتَ اللَّهَ الْبَلاَءَ، فَسَلْهُ الْعَافِيَةَ » (٥)

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

---

(١) الحشر : ١٨ - ٢٠.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) آل عمران : من الآية ١٨٥.

(٥) رواه الترمذي.

ولذا نرى رسول الله ﷺ يأمر عائشة بأن تدعوَ بهذا الدعاء « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ الْخَيْرِ كُلِّه عَاجِلِه وَآجِلِه، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الشَّرِّ كُلِّه عَاجِلِه وَآجِلِه، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ،وَأَسْأَلُكَ مِنْ الْخَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ،وَأَسْتَعِيذُكَ مِمَّا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ،وَأَسْأَلُكَ مَا قَضَيْتَ لِي مِنْ أَمْرٍ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا** » [1]

أخي المسلم:

عِش في دنياك بسعي الآخرة، واحذر أن يشغلك عاجلٌ عن آجل، وأن تركن إلى الحياة وترضى بها أو تطمئن إليها.. احذر الغفلة عن الغد، فإن الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب وساع بينهما كلما اقترب من أحدهما بَعُدَ عن الآخر. ﴿ **رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴿٢٠١﴾ ﴾[2]

✿✿✿

(١) رواه أحمد.

(٢) البقرة : من الآية ٢٠١.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ﴾

يولد الطفل وتتفتح عيناه على الأشياء من حوله، ولا يكادُ يتعامل مع الكون أو يمتدُّ بصرُه إلى آيات الله فيه.. إلى القمر المنير في ليل، أو الشمس المشرقة في نهار، أو الشجر المحمَّل بالثمار.

لا يكاد يشهد تقلب الليل والنهار، وآيات الله في الزروع والثمار، حتى ترد الأسئلة على نفسه تباعاً يرددها في نفسه، وتُمْطِرُ بها مَنْ حوله.. من أوجد هذا ؟ مَنْ خلق هذا ؟ لم يموت الإنسان ؟

إنها أسئلةُ الفطرة تنشدُ المعرفةَ للإنسان الذي وُلِدَ عليها « **وكلُّ مولود يُولَد على الفطرة** »[1] وهي تجد الدليل في كلِّ شئ. فإن مَضَى الإنسانُ معها، ولم يُصرَفْ بعواملِ الافتعال أو الكذب، خشع لربِّ كلِّ شئ، فلم يعبدْ غَيْرَه ولم يَرْجُ سواه.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ ﴾[2]

وإن صُرِفَ بضغوطٍ من البيئة وما تحيا عليه من تقاليد فاسدة أو مواريثَ ضالة، تنكَّب الطريق وضَلَّ السبيل، ورُئي ذليلاً خاشعاً أمام من لا يَضر ولا ينفع من حجرٍ، أو شجرٍ، أو بشر، أو سجدَ لشمسٍ أو قمر.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الأنعام : ١٠٢.

ومن رحمة الله بالناس أن يُرسل فيهمُ رسُلَه، ليخرجوا الناسَ من الظلمات إلى النور. من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، ومن ذُلّ النفس - وهي تخشع لغير الله - إلى عزّها وهي تعبد الله وحده. من السجود للشمس والقمر إلى السجود لله الذي خلقهُنَّ.

والرسلُ حين يبُعَثون في أقوامهم.. يُوَاجِهُون رُكَاماً هائِلاً مِنْ الأَوْهَامْ البَاطِلَة، والتقاليدِ الزائفة، والعقائدِ الموروثة الفاسدة.

ولذا فإن الله يختارهم ويصطفيهم، ويجعل فيهم الأسوة لكل سالكٍ في طريق الحق، راغب فيه، داع إليه. يقتدي بهداهم، ويأخذ نفسه بمنهجهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[1]

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ﴾[2]

ومع سورة من سور القرآن الكريم، وهي سورة المزمِّل لنرى ما فيها من إعداد وتبصرة، ونرى الرسول ﷺ وهو ينفذُ أمر ربه، ويستجيبُ لنداء خالقه. فإن سورة المزمِّل من أوائل السور نزولاً. فهي تُعِدُّ رسولَ الله ﷺ لتحمل أعباء الرسالة والنهوض بتبعاتها، وهي تضع أمام أعيننا السَّبيل لإعداد النفوس وتربيتها إعداداً يقوم على صدق الطاعة لله وحُسْن الاستجابة لأمره، حتى تكون صالحةً لتحمل أعباء هذا الدين والنهوض بتكاليفه ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ

(١) الأنعام : من الآية ٩٠.
(٢) الأنعام : ١٥٣

يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1]

نعلم من سيرته ﷺ أنه كان قبل بعثته شديدَ البُغْض لمألوفات قومه وعاداتهم، تفر نفسُه من رجْس الشرك وظلامِ الجاهلية إلى رَحَابة التأمل حيث ينشد الحق ويلتمس نوره.

تَوَّلاه الله منذ وُلد برعايته، وجعل العصمة حليفة في غَدْوته ورَوْحَته، فَعُرف بمكارم الأخلاق بين أهله وعشيرته.

عَبَّرت خديجة - رضي الله عنها - عما عرفته فيه واستقرأته من أحواله، حين رجع إليها ﷺ يرجف فؤاده بعد أن جاءه الحق، **وقال لها بعد أن ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ: « خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي »، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: « كَلاَّ وَاللَّه مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ »** [2]

وفي رواية أنه ﷺ « كان إذا برز سمع من يناديه: يا محمد. فإذا سمع الصوت انطلق، فأتى خديجة، فذكر ذلك لها وقال: قد خشيت أن يكون قد خالط عقلي شيء، إني إذا برزت أسمع من يناديني فلا أرى شيئا، فقالت: « ما كان الله ليفعل بك ذلك، إنك ما علمت تصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتصل الرحم » [3]

قال الإمام ابنُ حجر في "فتح الباري": إن الإحسانَ إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقلُّ بأمره أو من لا يستقل، وذلك كلُّه مجموع فيما وصفته به.

ومعنى تكسِبُ المعدوم: الكسب هو الاستفادة: فكأنها قالت: إذا رغب غيرُك أن يستفيد مالاً موجوداً، رغبت أنت أن تستفيد رجلاً عاجزاً فتعاونه.

---

(١) الأحزاب : ٢١.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه.

تلك صفاته بين قومه قبل البعثة. يُحسن إلى الأقارب وغير الأقارب، ويقوم بحق الضيف، ويبر بالناس، ويُعين على نوائب الحق. يتحرى الصدق في جميع أحواله ولا ينطق إلا بالحق « **أدَّبني ربي فأحسن تأديبي** »، وفي حديث هرقل ملكِ الروم وهو يسأل عن حال الرسول ﷺ بين قومه، يسأل أبَا سفيان وكان من أشدِّ الناس عداوة للرسول قبل أن يسلم.

قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان: لا. قال هرقل: فقد أعرفُ أنَّه لم يكن ليذرَ الكذب على الناس ويكذبَ على الله. (١)

أخي المسلم:

إذا أردت أن تحيا مع رسول الله ﷺ فعليك بالقرآن. فما تلا المؤمن شيئاً من كتاب الله، ولا استمع إلى شئ منه، إلا تمَّثل الرسول ﷺ أمامه يتلقى من أمين السماء ما يصون به أماناتِ الأرض. ورآه ﷺ متخلقاً بخُلُق القرآن صادراً عن أمره متأدباً بأدبه.

✿✿✿

إن الله – **جَلَّ وَعَلاَ** – يختار رُسلَه ويصطفيهم، ليبلِّغوا ما أُنزل إليهم من ربهم.

والرسل – وهم يحملون رسالات الله – يعبِّرون بسلوكهم وأعمالهم عن أنهم رسلُ الله حقاً، وأنهم يُبلِّغون عن الله صِدقاً. فما من رسول ولا نبي إلا وترى خشوعه لربه، وطاعته لأمرِه، وتأدُّبه بأدبه ﴿ **وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝ وَإِنَّهُمْ**

(١) رواه البخارى.

عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [1]

وإذا أردت أن تعرفَ رسولك ﷺ وأن تحيا معه فعليك بالقرآن الكريم. اقرأ كتاب الله تعرْفه، وتأملْ مقاصدَه وحقيقته تجده. عش في روضة القرآن لتنعم بأخلاق الرسول ﷺ، وصل حياتك به تَصِلْ فؤادك بالنور.

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [2]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [3]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [4]

نحن نعيش مع سورة المزمل نرى فيها بَمَ أُمر رسولُنا ﷺ، وكيف أقام ما أُمِرَ به

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾

---

(١) ص : ٤٥ – ٤٨.

(٢) المائدة : من الآية ١٥، الآية ١٦.

(٣) النّساء : ١٧٤.

(٤) الشورى : ٥٢، ٥٣.

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ ﴾ [1]

روى البخاريُّ وغيرُه من كتب السنَّة أنَّ أول ما نزل بعد قوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [2] هو أول سورة المدثر إلى قوله: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [3]

وبعد ما أعلن ﷺ رسالته اجتمع صناديد الكُفر من قريش، وتآمروا فيما يمنعون به الناس من اتباعه ﷺ. فقالوا نقول عنه: إنه ساحر، أو كاهن، أو شاعر، ولما بلغ ذلك النبي ﷺ حزن حزناً شديداً من مقابلة قومه وعشيرته له بهذا الافتراء. ودخل بيته، والتفَّ بثيابه، ونام يفكر كما يفعل المهموم. فأتاه جبريل عليه السلام وهو على هذه الحال بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ ﴾ [4]، وإنما ناداه ربه - جَلَّ وَعَلاَ - بهذا الوصف تأنيساً له وملاطفة، كما هي عادة العرب إذا أرادوا تخفيفَ هَمِّ واحدٍ منهم وملاطفته، فإنهم ينتزعون له اسماً من حالته التي هو عليها، والمعنى على هذا: يا أيها الملتف في ثيابه ألماً من قومه، قُم الليل إلا قليلاً. وهذا الخُلُق في الاستعانة بالصلاة قد تخلَّق بها رسول الله ﷺ: فكلما حزبه أمر فزع إلى الصلاة قائلاً: « **أرحنا بها يا بلال** » وهذا أمر الله للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [5]

ألم يقل له ورقةُ بنُ نَوْفَل - بعد أنْ أَخْبَرَتْهُ خديجةُ - رضي الله عنها - وقد لقي رسولَ الله ﷺ **وَهُوَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، أَخْبِرْنِي بِمَا رَأَيْت**

(١) المزمل : ١-٤.
(٢) العَلق : ١.
(٣) المدَّثر : ٥.
(٤) المزمل : ١.
(٥) البَقَرَة : ١٥٣.

وَسَمِعْت. فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: وَالّذي نَفْسِي بيَده إنّك لَنَبيّ هَذه الأمّة، وَلَقَدْ جَاءَك النّامُوسُ الأَكْبَرُ الّذي جَاءَ مُوسَى، وَلَتُكَذّبَنّهْ، وَلَتُؤْذَيَنّهْ، وَلَتُخرْجَنّهْ، وَلَتُقَاتَلَهْ، وَلَئنْ أَنَا أَدْرَكْت ذَلكَ الْيَوْمَ لأَنْصُرَنّ اللّهَ نصْرًا يَعْلَمُهُ. ثُمّ أَدْنَى رَأْسَهُ مِنْهُ، فَقَبّلَ يَافُوخَهُ. (١)

إي والله كما قال ورقة، ولتُكَذّبَنّه، ولتُؤْذَيَنّه، ولتُخرْجَنّه، ولتُقَاتَلَنّه.

بم يستعين على ذلك كله. لا بُدَّ أنْ يُعَدَّ لذلك إعداداً فما طريقةُ إعداده وتقوية قلبه لمواجهة تكاليف الدعوة إلى الله والمشقّات التي تقابله ؟ ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً ۝٤ ﴾ (٢)

الله أكبر. نحن مع صلاة الليل، وترتيل القرآن ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلاً ۝٦ ﴾ (٣)

قم الليل للصلاة والعبادة. روى الإمام مسلم في صحيحه عن سَعْد بْن هِشَام أنه أَتَى ابْنَ عَبَّاسٍ، فَسَأَلَهُ عَنْ وِتْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ بِوِتْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: مَنْ ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، فَأْتِهَا فَاسْأَلْهَا، ثُمَّ ائْتِنِي فَأَخْبِرْنِي بِرَدِّهَا عَلَيْكَ. قال سعد بن هشام: فَانْطَلَقْنَا إِلَى عَائِشَةَ، فَاسْتَأْذَنَّا عَلَيْهَا فَأَذِنَتْ لَنَا فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ. قَالَ: فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ وَلاَ أَسْأَلَ أَحَدًا عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَمُوتَ، ثُمَّ بَدَا لِي

---

(١) اليافوخ : أعلى الرأس ومكان التقاء العظام فيها.

(٢) المزمل : ١-٤.

(٣) المزمل : ٦.

فَقُلْتُ: أَنْبِئِنِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلاً، وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ » [1]

أخي المسلم:

إن في الليل لساعةً يُرجى فيها قبول الدعاء، فاغتنمها ولا تنم عنها. روى مسلم عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً، لاَ يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ » [2]

كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى صلاة أحبَّ أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نومٌ أو وجعٌ أو مرضٌ، صلَّى من نهار ثِنْتَى عَشْرَةَ ركعة.

وفي الحديث المتفق عليه عن عائشة – رضي الله عنها –: أن النبي ﷺ كان ينام في أول الليل ويقومُ آخره فيصلي.

✿✿✿

كان رسول الله يعتكف في حِراء من كل سنة شهراً. يُطعم من جاءَه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك كان أولُ ما يبدأ به – إذا انصرف من جواره – الكعبةَ قبل أن يدخل بيتَه، فيطوف سَبْعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

حتى إذا كان الشهرُ الذي أراد اللهُ تعالى به فيه ما أرادَ من كرامته، من السَّنَةِ التي بعثه اللهُ بها، وذلك الشهرُ هو شهرُ رمضان. خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهلُه، حتى إذا كانت الليلةُ التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العبادَ بها. جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى وألقى جبريلُ على محمد ﷺ ما شاء اللهُ أن يُلْقى.

وخرج الرسولُ ﷺ حتى إذا كان في وسط الجبل سمع صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسولُ الله وأنا جبريل.

ليلةٌ ما أعجبها وما أبْقى أثرها في حياة الإنسانية جميعاً. ومفاجأةٌ لرسول الله ﷺ ألْقت في نفسه الرَّوْع، فرجَع يرجُفُ فؤادُه. حتى قال لخديجة - رضي الله عنها -: « **لقد خشيت على نفسي**».

أُمِّيٌّ يُطلبُ منه أنْ يقرَأ وهو لاَ يعرف قراءةً ولا كتابة.. ما أعجب الأمر! وما أبين إعجازه ! وما أعجب أن ترى الرسول ﷺ يتابع قراءة جبريل، ويحرك شفتيه؛ حرصاً منه على ضبط ما يُلقى وحفظِه - فيؤمر بالاستماع والإنصات لقراءة جبريل، والله يتولَّى جَمْعه في صدره، وتيسير حفظه وأدائه، ثم يتولَّى - بعد حفظه وتلاوته - تبيينه وتوضيحه وإلهام معناه على ما أراد - جَلَّ وَعَلاَ - ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩** ﴾ [1]، فكان رسول الله ﷺ إذا انطلق جبريل قرأ القرآن كما أقرأه جبريل.

---

(١) القيامة : ١٦-١٩.

إعجازٌ من كل جانب. يملأ النفس رهبة وخشية واطمئناناً ويقيناً ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٢)

أي معجزة تُرجَى بعد هذا ؟ ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٣)

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٤)

ذلك الكتاب الذي نزل هو الذي أمر أن يرتله ترتيلاً وأن يَقُومَ به ليله

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾

(١) يونس : من الآية ١٥، ١٦.
(٢) الشورى : ٥٢، ٥٣.
(٣) العنكبوت : ٤٨.
(٤) العنكبوت : ٥١.

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ ﴾ [1]

أخي القارئ:

لا أعرف نِعمةً أعظمَ ولا أبقى من نعمة القرآن الَّذي يقسم الله به في أكثر من آيه ليلفت النظر إليه، ويبين شرفه ومكانته ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [2] ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [3]، ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [4]

والآية التي معنا ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ ﴾ [5] تلفت نظرنا إلى أمور لا بُدَّ أن نعيها، وأن نأخذ أنفسنا بها. تلفت نظرنا:

أولاً: إلى أن نتدبر القرآن ونحن نقرؤه، ولا يتمُّ ذلك إلا بالترتيل.. بتبيين الحروف، والتأنِّي في أدائها؛ ليكون أدعى إلى فهم معانيها ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾ ﴾ [6]

ثانياً: إلى أن القرآن قد نزل ليُعمل به، وهو حُجةٌ لكَ أو عليك. فلا بُدَّ أن تُتَدَبَّرَ آياتُه، وأن تطاع أوامرُه، وأن تُجتنب نواهيه ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [7]

---

(١) المزمل : ١-٤.

(٢) ص : ١.

(٣) يس : ١، ٢.

(٤) ق : ١.

(٥) المزمل : من الآية ٤.

(٦) الإسراء : ١٠٦.

(٧) ص : ٢٩.

روى مسلم عن النواس بن سمعان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يؤتى يومَ القيامة بالقرآن وأهلِه الذين كانوا يعملون به في الدنيا تَقْدُمه سورةُ البقرةِ وآلِ عمران، تُحَاجَّان عن صاحبهما »

وفي الحديث المُتَّفق عليه عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ » (١)

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: « أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ » (٢)

أخي المسلم:

إنَّ كل جيل مُخاطبٌ بالقرآن، مُختبر بمقاصده. بل كلُّ فرد مأمورٌ أن يأخذ نفسه وأن يُخضع سُلوكه له.

وأمتنا الإسلامية - في كل زمان ومكان - يتوقف أمرُها عليه. فإن اتبعت هداه عزت واهتدت، وإن بعُدَت شقيت وزلّت.

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [1]

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، واجعله حُجَّة لنا لا علينا (يا رب العالمين).

❁❁❁

(١) طه : ١٢٣ - ١٢٧.

obeikandl.com

﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾

إن ترتيل القرآن الذي أُمِرَ الرسولُ ﷺ به يقتضي تبيينَ الحروف، والتأنِّي في أدائها؛ لتسمعها الأذن، ويَعيَها القلب.

روى أبو داود عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو – رضي الله عنهما – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا » (١)

وروى البخاريُّ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: « سُئِلَ أَنَسٌ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ ؟ فَقَالَ: كَانَتْ مَدًّا. ثُمَّ قَرَأَ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ﴾ (٢) **يَمُدُّ بِبِسْمِ اللَّهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ »** (٣)

والمراد بقوله: يَمُدُّ ببسم الله، أي: يَمُدُّ اللام التي قبل الهاء من الجلالة، والميم التي قبل النون من الرحمن، والحاء من الرحيم.

كما كان يُرَجِّعَ قراءته ﷺ. ومعنى الترجيع تحسينُ التلاوة.

في الصحيح عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُغَفَّلٍ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِه – أَوْ جَمَلِه – وَهِيَ تَسِيرُ بِه، وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ – أَوْ مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ – قِرَاءَةً لَيِّنَةً، يَقْرَأُ وَهُوَ يُرَجِّعُ » (٤)

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) الفاتحة : ١.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

فيستحب تحسينُ الصوت بالقرآن، وطلبُ القراءةِ من حَسَنِ الصوت والاستماعِ إليه.

في الحديث المُتَّفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ » (١)

ويعني أذن الله: أي: استمع، وهو إشارة إلى الرضا والقبول.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ. قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ ؟! قَالَ: فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي. فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (٢) **قَالَ: أَمْسِكْ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ »** (٣)

وفي رواية مسلم: « قَالَ: إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (٤) رَفَعْتُ رَأْسِي، أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ » (٥)

أخي القارئ:

حَافظ على قراءة القرآن، وواظبْ على تلاوته، واحذر أن يَتَفَلَّتَ بطول هَجْر، أو تَعَرُّضه لنسيان.

---

(١) متفق عليه.

(٢) النساء : ٤١.

(٣) رواه البخاري.

(٤) النساء : ٤١.

(٥) رواه مسلم.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ؛ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنْ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا »(١)

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ »(٢)

أخي المسلم:

إن الخير أمامك وما أكثره، فاحذر الغفلة، فإنها تحول بينك وبين خير كثير.

أتدري ماذا أعد الله لقارئ القرآن من حسنات والله يضاعف لمن يشاء ؟ إنها حسنات تُعْطَى على كل حرف من حروف القرآن.

روى الترمذي عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ: الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ » (٣)

اجعل قلبك دائماً عامراً بتلاوته ولا تهجره؛ فأنت بدونه كالبيت الخرب.

روى الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ » (٤)

اقرأ وداوم على القراءة حتى تتحسن قراءتُك وتكونَ مع السفرة الكرام البررة.

روى مسلم عَنْ عَائِشَةَ – رضي الله عنها – قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « الْمَاهِرُ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه الترمذي.

بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ » [١]

إن للقراءة الخاشعة فَضْلَها، فهي سببُ نزولِ الرحمة والملائكة. فاقرأ من الليل متدبراً خاشعاً دون أن تُشغَل بشيء من أمور الدنيا، ورتل القرآن ترتيلا.

روى البخاريُّ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ ﷺ قَالَ: « بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ [٢] الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَنَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَانْصَرَفَ – وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا – فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ [٣] فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، قَالَ: أَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فانْصَرفتُ إليه، ورَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا. قَالَ: وَتَدْرِي مَا ذَاكَ ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوَارَى مِنْهُمْ » [٤]

الله أكبر، الحمد لله على هذه النعمة الكبرى، نعمة القرآن العظيم.

أخي المسلم:

أرأيت لم أُمر الرسول ﷺ بقيام الليل وترتيل القرآن ؟ أرأيت ما في قيام الليل من نور، وما في ترتيل القرآن من خير ؟ إنه زاد النبوة أمر الرسول بأخذه، فكانت قُرة

---

(١) رواه مسلم.

(٢) يقال : جالَ يَجُولُ، إذا دارَ.

(٣) الظُّلَّة : الشيء يُستَتر به من الحَرِّ والبرد.

(٤) رواه البخاري.

عينه في الصلاة، وأحبُّ شئ إليه أن يتلوَ أو يسمع كلام الله ﷻ.

أخي المسلم:

كلَّ يوم يمضي يُنقص من عمرك، وكل يوم يمضي يقربك من أجلك، فلا تزدك الأيام من القرآن إلا قُرْباً وَحُبّاً ومُصاحبة.

روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَالَتْ: قالت فاطمةُ – رضي الله عنها –: « أَسَرَّ إِلَيَّ النبي ﷺ أنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلاَ أُرَاهُ إِلاَّ حَضَرَ أَجَلِي » [1]

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة.

✿✿✿

(١) رواه البخاري.

obeikandl.com

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾

أيها القارئ الكريم:

إن قيمة الإنسان في تكليفه، وكرامته في مسئوليته.

فالمسئولية هي التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات. ولذا خوطب الإنسان بالتكاليف؛ تكريماً له وتشريفاً، إذ لا يكلف تَحَمُّلَ الأعباء إلا من هو أهلٌ لحَمْلها ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١)

وقد رأينا كيف خُوطب الرسولُ ﷺ وأُمر بقيام اللَّيل، وكيفَ نَفَّذَ مَا أُمِر به ﷺ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ ﴾ (٢)

ورأينا كيف كانت قراءةُ رسول الله ﷺ.

والآن نحن مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ (٣)

إن المراد بالقول الثقيل هو القرآن، وفي معنى ثِقَلِه أقوال:

منها: أَنَّهُ كان يَثْقُلُ عَلَيْهِ إذا أُوحي إليه ﷺ.

روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: « يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟ فَقَالَ

---

(١) التوبة : ١٠٥.

(٢) المدثر : ١-٤.

(٣) المزمل : ٥.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ[1] وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ[2] عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ. قَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا –: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[3] »[4]

ومنها: أنه ثقيل التكاليف على النفوس، والرسول ﷺ مأمورٌ بتحمُّلها وتحميلها للأُمة، فما أعظم ما حَمل من أمانة، وما أجلَّ ما قام به من تكاليف، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح لِلأمَّة ﷺ.

أخي المسلم:

إن مجاهدة النفس لإخضاع هواها لهذا الحق أمرٌ ثقيل يحتاج إلى يَقَظَةٍ واستعداد. يُطْلَبُ الإنسان لأداء الصلاة وإقامتها، ونداءُ الحق « حي على الفلاح »، ونداءُ الشيطان مع الهوى يَصدُّ ويعقد عُقَدَه، ويَعدُ الإنسان بالباطل، ويتدرج به حتى يُفْسِدَ عليه أمره، ويذهَبُ – وقد ضيَّع على الإنسان طَاعَته لربِّه – فرِحاً بانتصاره، أما الإنسان – وقد نام عن صلاته – فيصبحُ خبيث النفس كسلان.

إن القيام بالواجبات يحتاجُ إلى مُجَاهَدة ويَقظة؛ فإن الشيطان ساهرٌ يدخل إلى الإنسان مِنْ مداخِلَ متعددة، بل قَدْ يدخل إليه من باب الطاعة، فيزين له الرياء؛ لإحباط عملِه وإبطالِ سَعْيِه.

إن احتمال القول الثقيل يحتاج إلى زاد واستعداد، ولهذا أُمر الرسول ﷺ بقيام

---

(١) الصلصلة والصليل : الصوت. يقال : صلت أجواف الإبل من العطش، إذا يبست ثم شربت فسمع للماء في أجوافها صوتًا، والجرس معروف، وهو شبه الناقوس الصغير يوضع في أعناق الإبل.

(٢) فَيُفْصَمُ عَنِّي : يقال : فصم الشيء عنك، أي ذهب

(٣) لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا : أي يسيل عرقًا.

(٤) رواه البخاري.

الليل وترتيل القرآن، وفي قيام الليل وترتيل القرآن - في سكون الليل وهدوئه - زادٌ كلَّ الزاد لمن ينشد طاعة الله ويبتغي رضاه. فما رأيت أصحَّ للنفس من آية يستقبلها القلب فيخشع لها ويلين.

إن كلَّ شيء يتحدد أمام الإنسان على طبيعته دون خداع، فيعرف نفسه ومصيره، ويطلبُ الفوز من طريق الفوز، ويُسارع إلى الخيرات؛ موقناً أن خيره كلَّه ينحصر في مرضات الله.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [1]

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [2]

أخي المسلم:

يُطْلَبُ الإنسانُ لطاعة الله بالتكاليف التي فرضها، وهي تكاليف تمضي إلى المال فتجعل فيه حقًّا معلوماً، وإلى النفس فتنشدها طائعة تخضعُ هواها لأمر ربها « **لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ هواهُ تبعاً لما جِئْتُ به** » [3]، وكل ذلك يحتاج إلى مجاهدة النفس وعدم الغفلة؛ حتى لا يركن الإنسانُ إلى وساوس الشيطان ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) الزمر : ٢٣.

(٢) الإسراء : ٩.

(٣) الإبانة الكبرى.

يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ (١)

إن الشيطان يجد سرعة الاستجابة له عند الغافلين الذين لا تستنير نفوسُهم بذكر الله، إنه يَعْدُهم ويمنيهم، ثم يتبرأ منهم ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٢)

طريقُ الفوز والفلاح أخذُ النفسِ بطاعة الله بالتزام سنة رسول الله ﷺ وهديه حتى تَسلَمَ النَفْسُ من العُلو المهلك والتفريط المضيِّع ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ (٣)

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (٤)

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى » (٥)

وفي الحديث المتفق عليه عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله ﷺ: « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ** »(٦)، وفي رواية لمُسلم: « من

(١) البقرة : ٢٦٨.
(٢) النساء : من الآية ١٢٠.
(٣) الحشر : من الآية ٧.
(٤) آل عمران : ٣١.
(٥) رواه البخاري.
(٦) متفق عليه.

عمل عملاً ليس عليه أمْرُنا فهو رد »[1]

وفي الحديث المُتَّفَق عليه – واللفظ للبخاري – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ »[2]

اللهم اجعل هوانا تبعاً لما جاء به نبيك ﷺ.

✿✿✿

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

obeikandl.com

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾

أيها القارئ الكريم:

كم لله في الآفاق وفي النفس من آيات، تحقق العبرة، وتُثير الخشية ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١)

في تقلب الليل والنهار عبرة. وفي نزع النهار عن الليل آية ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (٣)

ما أعجب الكون ! وما أعظم دَلاَلَتَهُ ! مـــاذا يفعل الناس لو استمر الليل أبداً ؟ هل يستقيم لهم سعي، أو تمتد بهم حياة ؟

وماذا يفعلون إذا استمر الليل أبداً وهم يحتاجون إلى الليل وسكونه بعد نشاط النهار وسعيه ؟

---

(١) النور : ٤٣.

(٢) يس : ٣٧.

(٣) الفرقان : ٦٢.

والله يلفت أنظارهم إلى هذه النعمة، حتى لا تحكمهم الغَفْلة فلا يعتبرون بآياته التي تَمرُّ بهم ويعيشون فيها ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١)

أفلا يكون من شُكر النعمة أن يُضاء الليل بذكر الله، بصلاة خاشعة، يُرَتَّلُ فيها قرآن ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ (٢)

إن العبادة التي تحدث في الليل هي أشد ثباتاً في القلب ورسوخاً فيه، وأبْيَنُ قولاً، وأصوبُ قراءة من عبادة النهار؛ لحضور القلب، وهدوء الأصوات والحركة، وذلك أبعث على التأمل والاستفادة.

وانظر كيف كان رسول الله ﷺ يحب من أصحابه أن تكون لهم بالليل صلاة.

في صحيح مسلم عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ: رَأَيْتُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَأَنَّ بِيَدِي قِطْعَةَ إِسْتَبْرَقٍ، فَكَأَنِّي لاَ أُرِيدُ مَكَانًا مِنْ الْجَنَّةِ إِلاَّ طَارَتْ إِلَيْهِ، وَرَأَيْتُ كَأَنَّ اثْنَيْنِ أَتَيَانِي أَرَادَا أَنْ يَذْهَبَا بِي إِلَى النَّارِ، فَتَلَقَّاهُمَا مَلَكٌ فَقَالَ: لَمْ تُرَعْ، خَلِّيَا عَنْهُ. فَقَصَّتْ حَفْصَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِحْدَى رُؤْيَايَ، فَقَالَ النَّبِيُّ

(١) القصص : ٧١-٧٣.

(٢) المزمل : ٦.

ﷺ: نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ. فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ » (١)

وفي الحديث المُتَّفَق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: « ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَهُ حَتَّى أَصْبَحَ، قَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ، أَوْ قَالَ فِي أُذُنِهِ » (٢)

أخي المسلم:

عوِّد نفسك وأهلك على أن يكون لبيتك نصيبٌ من صلاة الليل، واحْذر على نفسك وأهلك من ليل لاهٍ غافلٍ لا يُذكر الله فيه.

روى أبو داود بإسناد صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً قَامَ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ » (٣)

وانظر حال مَن كان خُلُقُهُ القُرآن ﷺ.

في صحيح مسلم عن ابن مسعود ﷺ قَالَ: « صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَطَالَ حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ. قِيلَ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ » (٤)

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه مسلم.

وفي مسلم – أيضاً – عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: « صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَة، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِئَة، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَة، فَمَضَى. فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَة فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَال سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. ثُمَّ قَامَ طَوِيلاً قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ » [1]

أخي المسلم:

في سكون الليل وهدوئه يَطيبُ للنفوس – التي تطمع في ثواب الله وتخشى عقابه – أن تدع فراش النوم وراحته إلى وقفة ضارعة بين يدي الله، تنشد فضله وتطلب رضاه.

وهذه اللحظات تُضيء نفوسهم وتحيي قلوبهم ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [2]

وانظر إلى الجزاء الذي لا يُمكن أن يوصف. الجزاء الذي تطيب به النفوس، وتقرُّ به الأعين ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [3]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) السجدة : ١٦.

(٣) السجدة : ٢٠.

روى ابن ماجة في سننه عن عَبْد اللَّه بْن سَلاَمٍ قَالَ: « لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ قِبَلَهُ، وَقِيلَ: قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّه، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّه، ثَلاَثًا. فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِه أَنْ قَالَ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلاَمَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ » [1]

أخي المسلم:

أرجو الله أن يوفقك لطاعته، وأن يكون لك حساب مع نفسك، ومراجعة عند نومك. فإن الله يتوفاك بالليل ولا يبعثك إلا إلى الأجل المسمى، فراجع نفسك وحاسبها، فإنك لا تدري متى تُدعَى فتجيب ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[2]

اللهم إنا نسألك رضاك.

❁❁❁

(١) رواه ابن ماجة.

(٢) الأنعام : ٦٠.

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلاً ﴾

أيها القارئ الكريم:

أُمر الرسول ﷺ بقيام الليل وتدبُّر القرآن، وقد عرفت كيف كانت صلاتُه من الليل كيف كانت قراءتُه، وعرفت ما في صلاة الليل من حضور القلب وعظيم التآمل والاستفادة.

عرفت ما فيها من مزايا وآثار في إعداد النفس لتحمل التكاليف. والليل بما فيه من هدوء وسكون أنسبُ للتفـــرغ للعبـــادة والنفس ليست موزعة في مشاغل العمل ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئًا وَأَقۡوَمُ قِيلاً ۝٦ ﴾ [1] لأن النهار خلق للسعي والعمل ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلاً ۝٧ ﴾ [2] تقلباً وتصرفاً في مهماتك، واشتغالاً بأعباء الرسالة فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة تفرغاً تاماً إلا في الليل، فعليك بما فيه ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾[3]

إن الإنسان – وقد زُوِّد بزاد التقوى – يمضي في السعي والعمل وهو يذكر الله في كل ما يعرض له، فتعصمه صلاتُه وتنهاه. إنَّه يسعى وهو يعلم أنَّه يُطلب للعودة مرة أخرى بل مرات متكررة إلى ضيافة الله، فيعزمُ على ألا يُلَمَّ بمعصية أو يقعد عن طاعة. إنه يخشى – دائماً – أن يطلع الله منه على سُوء قصد، أو يلقاه في ضيافته ولم يُحسن السعي. بل يعمل جادًّا على أن يقف بين يدي الله ما بين فترة وأخرى بوجه نضر، وقلب خاشع حذِر.

---

(١) المزمل : ٦.

(٢) المزمل : ٧.

(٣) الإسراء : ٧٩.

فانظر كيف يتم ضبط الوقت بزمام الفضائل ؟ وكيف تمضي الساعات ما بين سعي محفوف بالذكر، وما بين ذِكر يطيب معه السعي. ثم انظر كيف تمتد الحياة في نفوس المؤمن وتتسع ؟

تمتد وقد اتسع رجاؤه وطاب سعيُه، ويتسع وقد امتدت الحياة إذ هي ليست دنيا فحسب، بل هي في الحق دُنيا محدودة لأخرى غير محدودة.

يرى هذا بصِدق وهو في ساحة الرحمة يشهد وَثَباتِ الروح وهي تطوِّف في عالَمها في لمحة فكر وعمل قلب.

إن كلَّ متبع لرسول الله ﷺ مُقتدٍ به، لا يَعرفُ معنى الفراغ. الفراغ الذي يوقظ نوازع الهوى، ويذهب بشرف الفكر - إنه صاحبُ منهج ملئ بالواجبات، مملوءٍ بالحقوق والتبعات.

إن الصلاة تشيعه إلى مَرْقَدِه وتبعثه منه. وتطلبُه من سعيه وتردُّه إليه. لا ليخرج منها إلى إثم وفسوق، بل ليخرج إلى عبادة من نوع آخر. عبادةِ العمل على حفظ كيان الإنسان بالسعي المشكور والعمل البار.

والإسلام العظيم يُسمِّي عمل الإنسان كلَّه - مع حُسن القصد والنية - عبادة وذاك مفهوم الحصر في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [1]

نعم خلقه للعبادة لا لشئ آخر أيِّ شئ.

وقد قلت: إن حسن القصد يجعل عملَ الإنسان المشروع كله عبادة.

وإذا تأملت ما يلزم الإنسانَ لحفظ كيانه وتحقيق غايته في مرضات ربه، ألفيت أن

(١) الذاريات : ٥٦، ٥٧.

الواجبات المنوطة به لا تدع منه فراغاً يقتل حِسَّه، ويطفئُ إشراق نفسه، وينالُ من طُهر فكره.

وألفيتَ أن العمل في سبيل ذلك يأتي تباعاً. فهو إن دخل إلى المحراب متعبداً ليُعطِيَ النفس حظها من السموِّ والطُّهر، انتقل إلى ساحة العمل متعبداً ليعطِيَ الجسدَ حظَّه من المطعم، والمشرب، والملبس، ووجد نفسه - وهو يسعى ويعمل ويسمو ويتطهر - أمام كون منظم يدعو إلى التأمل والفكر، والنظر والتدبر ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]

وما يناله من معرفة - إن هو ثابر وجدَّ وانتظم - قليلٌ مهما طال العمر أو امتد الأجل، فهو يحيا في كون الله الواسع العريض، وفي كل يوم يكشف فيه عن جديد.

بل الإنسانية - في خط سيرها الطويل - لا تَصِلُ في معرفتها إلاَّ إلى قدر ضئيل من أمر الكون المرئي والخفي.

الفكر إذن يعمل وله منهج، والجسدُ يتحرك جاداً عاملاً منطلقاً وله منهج، والنفس بعواطفها تتصل بخالقها في فرائض محددةٍ معلومةٍ ذات منهج..

والأمة في مجموعها وهي تحفظ كيانها، وتصون شرفها لها منهج - وهي تعمل للحق وتصونه وتدعو إليه لها منهج، وهي تحمي أفرادها في اليوم والغد وتُعِيدهم للدنيا والآخرة لها منهج، في علاقاتها مع من جاورها أو حاورها أو عاهدها لها منهج، والفرد في ذلك كله هو الذي يسعى ويعمل لتحقيق هذه الواجبات والقيام بتلك التبعات.

فأين الفراغ إذن في حياة الفرد، بل في حياة الأمة صاحبة الرسالة والغاية ؟

---

(١) النُّور : ٤٤.

لا فراغ والإيمان قائم بالنفوس، لا فراغ والإيمان يعمر القلوب، لا فراغ في حياة أمة لها غاية. بل في حياة فرد له عقيدة، فإن العقيدة تملئ - دائماً - عليه أن يتحرك في دائرتها، وأن ينتظم في سلوكه مع شرائعها وواجباتها.

طهرٌ بالليل، وسَبْح في النهار.

﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾[1]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢ ﴾[2]

أيها القارئ الكريم:

أرأيت كيف يقضي المؤمن ليلَه ونهاره. فلا الليل لاه بإثم، ولا الظلم واقع في النهار. إنه صاحب منهج وغاية. منهج يَتبعُ فيه رسوله ﷺ ولا يبتدع، وغاية يعمل لها ويحيا من أجلها، ويخضع كلَّ أمره لله ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣ ﴾[3]

إن الفراغ الذي تشكو منه الأمم بين أبنائها لا يُوجد عِنْدَ الأمة التي تقوم برسالتها، وتعرف واجبَها نحو دينها، وتربِّي أبنائها وتُعدهم؛ ليكونوا جنوداً صَادقين لحمل هذه الرسَالة.

---

(١) المزمل : ٢-٧.

(٢) الفرقان : ٦٢.

(٣) الأنعام : ١٦٢، ١٦٣.

ونحن نمضي مع سورة المزمل رأينا كيف يُحيي الرسول ﷺ ليلَه، وكيف يرتِّل القرآن ترتيلاً، ورأينا كيف يقضي نهاره، وقد تعرفنا على أن كل مُتبع للرسول ﷺ مُقتدٍ به لا يعرف معنى الفراغ الذي يوقظ نوازع الهوى ويذهب بِشَرف الفكر؛ لأنه صاحب منهجٍ مملوءٍ بالواجبات، مَلِئ بالحقوق والتبعات.

والمؤمن حين يؤدي واجبه في قيام وصلاة، أو سعي وعمل، يُؤمن برقابة الله عليه، فيؤدي واجبه بقلب يقظ ونفس مستقيمة تبتغي وجْه الله ولا ترجو سواه.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [1]

هذه الرقابة التي يُؤمن بها المؤمن في كل شأن من شئونه، بل في كل جزئية من جزئيات عمله، هي التي تجعل عملَه - دائماً - يتسم بالإحسان والإتقان.

❁❁❁

والمؤمنُ يعلم - تماماً - أنه إن مَضَى إلى لَيْلٍ يَسْكُنُ فيه، فهو في قَبْضَة الله إن شاء أرسله إلى أجل مسمى وإن شاء أمْسكه.. وهذا الإيمانُ يجعل الليل طهُوراً بارًّا غير لاهٍ بإثم ولا غافلٍ بلهو، ويجعلُ النهار في سعي بارٍّ وعمل مشكور.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ

(١) الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠.

أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١)

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢)

تلك عقيدة المؤمن وحياة الإنسان تمضي بين ليل ونهار ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٣)

إن المؤمن في ذكر متصل، إن خرج من بيته أو تقلب في عمله ينشد - دائماً - رضى الله، ويطلب توفيقه « **اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أزلَّ أو أُزلَّ أو أظلِمَ أو أُظلم، أو أجْهَل أو يُجْهَل عليَّ** » (٤)

فهل يعي الناس حِكمة تقلب الليل والنهار ؟ وهل يأخذون العبرة لأنفسهم وهم يرون الآجال تمضي بين تقلُّب الليل والنهار ؟ وهل يشهد الليلُ منهم يقظة الذاكرين ويراهم النهار عاملين شاكرين ؟

إن أعظم ثراء الإنسان في المحافظة على وقته الذي يدْنو به - دائماً - إلى أجله، وهو مسئول عنه أين ضيَّعه وفيمَ أمضاه.

---

(١) الأنعام : ٦٠-٦٢.

(٢) الزُّمَر : ٤٢.

(٣) الأنعَام : من الآية ٦١.

(٤) رواه أبو داود.

أخي المسلم:

انظر كيف يرتبط الزمن بذكرٍ يحفظه، وتدبَّر ما يأمُرُ الله به نبيَّه ﷺ في قوله:

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (١)

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم:

حافظ على وقتك ولا تضيعه في غير مرضات ربك. اجعله في عمل مشروع وسعي مبرور وعلم نافع. واحذر أن تُضَيِّع فرائض ربِّك أو تُصْرَفَ عنها بصارف من شهوات نفسك. احذر الخضوع للهوى؛ فإنه مُهلك مُدَمِّر ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٣)

كُن دائماً حيثُ يحبُّ الله أن يراك، واحذر أن تُبدد نِعم الله في غير طاعة..

احذر أن يضيعَ ليلك في لهو عَابث، أو ينقضي في غير مرضات الله، واحذر أن يعقد الشيطان عليك عُقَدَه، وأن تنام عن ذِكر الله، فتصبح خبيث النفس كسلان. وتواجه السعي وأنت ضيقُ الصدر بالناس مُفرِّط في أداء واجبك.

---

(١) طه : ١٣٠.

(٢) ق : ٣٩، ٤٠.

(٣) ص : من الآية ٢٦.

إن الحياة تمضي، والأعمارَ تنقضي، وما أسرعَ ما تمضي الأيام وتنقضي الآجال ! فاستبق الخيرَ ولا تؤجل فإنك لا تدري متى يأتيك الأجل، وهو آت لا محالة.

﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (١)، ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾ (٢)

أخي المسلم: إذا أردت نجاة وفلاحاً فاتبع طريق نبيِّك ﷺ فمن اتبع طريقه نجا ومن خالفه هلك. وفي طريقه تحقيق لأكرم حياة، حياة الكرماء الشرفاء، والذين لا يرجون إلا الله، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يبتغون إلا وجهه، وعندما تستمسك أمتنا الإسلاميةَ في كل مكانَ بما أُنزل على محمد ﷺ وتُخضع هواها للحق الذي جاء به، عندئذ ترنو الإنسانية إليها، وتُصْغِي لكلمتها، وتطلب مودَّتها، وتخضع لحقهِّا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣)

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (٤)

---

(١) البقرَة : من الآية ١٤٨.

(٢) النساء : من الآية ٧٨.

(٣) الأنفال : ٢٤.

(٤) آل عمران : ١٦٠.

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً ﴾

أيها القارئ الكريم:

نحن الآن مع قوله تعالى من سورة المزمل: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلاً ۝٩ ﴾[1]

وقد قرأت من قبل ما أمر الرسول ﷺ به من قيام الليل وترتيل القرآن، وبيان ما في قيام الليل من أثر، وما في النهار من عمل ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئًا وَأَقۡوَمُ قِيلاً ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلاً ۝٧ ﴾[2]

وقد عرفت كيف تخلَّق رسولُ الله ﷺ بالقرآن، وكيف نفَّذ أمر ربه، عرفت كيف كانت صلاته وكيف كان يرتل القرآن. نعم، عرفت قيامه بالليل، وأنت تعرف جهاده وعمله بالنهار. ولقد بارك الله جهاده فعشنا نحن - وتعيش الأجيال من بعدنا - وهي ترى في سيرته أعظم أسوة وفي سنته أقومَ سبيل.

ونحن الآن مع هذا الأمر البار الكريم ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً ۝٨ ﴾[3] دُمْ على ذِكره تعالى ليلاً ونهاراً، بالتسبيح، والتحميد، والصلاة، وتلاوة القرآن اذكره في كل شأن من شئونك، وفي كل أمر من أمورك، وانقطع إليه تعالى في العبادة والدعاء انقطاعاً، وجرِّد نفسك من كل ما سواه.

---

(١) المزمل : ٨،٩.

(٢) المزمل : ٦،٧.

(٣) المزمل : ٨.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١)

أيها القارئ الكريم:

إن ذكر الله واجب في جميع الأحوال؛ في السلم والحرب، في الصحة والمرض، في الشدة والرخاء، قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم.

عند لقاء العدو ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)

وفي الجمعة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣)

وفي الحج ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ ﴾ (٤)

---

(١) يونس : ١٠٦، ١٠٧.

(٢) الأنفال : ٤٥.

(٣) الجمعة : ١٠.

(٤) البَقَرَة : من الآية ٢٠٠.

وفي جميع الأحوال ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢)

خرَّج الإمام أحمد عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ ﷺ قَالَ: « أَتَى النَّبِيَّ ﷺ أَعْرَابِيَّانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: مَنْ خَيْرُ الرِّجَالِ يَا مُحَمَّدُ ؟ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ. وَقَالَ الآخَرُ: إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ. قَالَ: لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ » (٣)

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظله « رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » (٤)

إن ذكر الله طمأنينة للقلب، وحصانةٌ للنفس وقوة لها ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٥)

وفي الحديث المُتَّفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ

(١) البَقَرَة : ١٥٢.
(٢) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢.
(٣) رواه أحمد.
(٤) متفق عليه.
(٥) الرّعد : ٢٨.

ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » (١)

وروى الترمذي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلاَمَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ » (٢)

وروى الترمذي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى »(٣)

وفي الحديث المُتَّفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ. سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ » (٤)

اذكر الله دائماً، وفي جميع أحوالك، واحذر الغفلة؛ حتى لا يدخل الشيطان إلى طعامك وشرابك ومبيتك.

روى مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: « كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَضَعَ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا،

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه الترمذي.
(٤) متفق عليه.

فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لاَ يُذْكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا » (١)

أخي المسلم:

أَنِرْ قلبَك دائماً بذكر ربِّك ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (٢)

اللهم اجعلنا من الذاكرين.

أيها القارئ الكريم:

إن أفضل القربات إلى الله ﷻ ذِكْرُ الله.

إنَّه أمان للنفس وطمأنينةٌ للقلب ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٣)، ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (٤)

لذا أمر الله نبيه ﷺ بالمداومة على ذكر الله ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ (٥) فكان ﷺ دائم الذكر، تنام عيناه ولا ينامُ قَلْبُه.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الأعرَاف : ٢٠٥.

(٣) الزّخرُف : ٣٦

(٤) الإنسَان : ٢٥.

(٥) المُزّمل : ٨.

والله أمر المؤمنين بما أمرَ به نبيَّه ﷺ من المداومة على ذكر الله قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾[1]

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[2]

ولا ينصرفُ الإنسان عن ذكر ربه إلا عندما يستحوذُ عليه الشيطانُ فينسيه ذكرَ الله ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[3]

أخي المسلم:

تعال نحيا مع مَن كان خُلُقُهُ القُرآن ﷺ؛ لنرى ماذا يقول عن الذكر والذاكرين. في الحديث المُتَّفَق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ. قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ -: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ، مَا رَأَوْكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا.

---

(١) المنافقون : ٩.

(٢) الأنفال : ٩.

(٣) المجادلة : ١٩.

قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّه يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنْ النَّارِ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّه يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قَالَ:يَقُولُ مَلَكٌ مِنْ الْمَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ! قَالَ: هُمْ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » [1]

وروى مسلم عن أبي سَعِيد الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: « خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِد، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ. قَالَ: آللَّه مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ ؟ قَالُوا: وَاللَّه مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ: آللَّه مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ ؟ قَالُوا: وَاللَّه مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلاَئِكَةَ » [2]

أخي المسلم:

إن ذكر الله حياة النفوس، وهو الذي يُحول بين الناس وبين الوقوع في حبائل الشيطان، فكم من إنسان تطلعت نفسه إلى ما لا يحل فذكر الله فَعَفَّ. وكم من مخطئ

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

ذكر الله فاستغفر لذنبه، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ وكم من يد كَفَّت عن السُّوء عندما ذُكِر الله ؟

إن ذِكر الله ضمان لحُسن التعامل بين الناس وتحقيق الأمانة بينهم.

إن فتاةً فقيرة عَفَّت أن تُجاريَ أمَّها فيما طلبت من إضافة ماء على اللبن؛ لأنها ذكرت ربَّها. ولما قالت لها أمُّها: إن عمرَ لا يرانا، قالت: « إذا كان عُمر لا يرانا فإنَّ ربَّ عمر يرانا »

إن المؤمن دائمُ الذكر لله في كل شئ، أما المنافقُ فكسولٌ مُراءٍ لا يذكر الله إلا قليلاً ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [1] إن الذين لا يؤمنون بالآخرة تشمئز نفوسهم إذا ذكر الله وحده، ويستبشرون إذا ذُكر الذين من دونه ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [2]

إن كلَّ فسادٍ يقع بين الناس منشؤه الغفلةُ عن ذكر الله.. إن كلَّ نعمة في يد المؤمن يخضعها لذكر ربه، يذكر ربه فيتصدق، يذكر ربه فيقدم النصيحة للناس، يذكر ربه فيستجيب له في كل شئ. بل إن المؤمنين يطلبون النعمة والعافية من الله من أجل تسبيحه وذكره.

---

(١) النساء : من الآية ١٤٢.

(٢) الزُمَر : ٤٥.

انظر إلى موسى عليه السلام وهو يطلب من ربه ما يطلبه من أجل ذكره وتسبيحه

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [1]

أخي المسلم:

إن الذكر حياة النفوس، وتأمل ما يقوله رسول الله ﷺ، فيما رواه البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ » [2]

وفي رواية مسلم: « مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لا يُذْكَرُ اللَّهُ، فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ » [3]

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [4]

---

(١) طه : ٢٥-٣٤.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) آل عمران : ٨.

﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾

سُئلت أمُّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: « كان خُلُقُهُ القُرآن » (١)

وهذا القول يُصوِّر حقيقةَ ما كان عليه رسول الله ﷺ. فما دعا القرآن إلى شئ إلا كان أسبقَ الناس إليه، وما نهى عن شئ إلا كان أبعدَ الناس عنه.

كان أعرف الناس بربه وأخشاهم وأتقاهم له. تشتد الأخطار من حوله، فتراه ثابتَ النفس، مطمئنَّ القلب، متوكلاً على الله، معتمداً عليه.

حَاصَرَ الكفارُ داره، بل تابعوا أثره حتى وصلوا إلى الغار، وصاحبه -رضوان الله عليه- يرى الحصار على الغار، ويرى أن القوم لو امتدت أبصارُهم لرأوا الرسول ﷺ وصاحبه، لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآهما، ويعرف الرسولُ ﷺ خوف صاحبه وحُزْنَه عليه فيقول: ((ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٢)))

إنه التوكل على الله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (٣)

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۚ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٤)

---

(١) رواه أحمد.

(٢) التوبة : من الآية ٤٠.

(٣) الطَّلاَق : من الآية ٣.

(٤) التَّوبَة : ٤٠.

أخي المسلم:

نحن مع الآيات من سورة المزَّمل ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾[1]

وقد عرفت عبادة رسول الله ﷺ وإخلاصه لله وحده. والله – جَلَّ وَعَلاَ – يأمره بالتوكل بعد الأمر بالإخلاص في العبادة. كما أفردت ربَّك بالعبادة فأفرده بالتوكل فاتخذه وكيلاً. ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣ ﴾[2]

تدبر الآية التي معنا ترى قبل الأمر بالتوكل ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو. فأنت تتوكل على القوي القادر الذي لا يُعجزه شئ في الأرض ولا في السماء، له مُلك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير، بيده الخلق والأمر، وإليه المرجع والمصير. ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨ ﴾[3]

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣ ﴾[4]

---

(١) المزمل : ٨، ٩.

(٢) هود : ١٢٣.

(٣) الأنعام : ١٧، ١٨.

(٤) التَغَابُن : ١٣.

ولكن ما حقيقة التوكل ؟ وما غَايتُه ؟ ما نتيجتُه وثَمرتُه ؟

يقال: توكلت عليه، بمعنى اعتمدته، تَوَكَّل بالأمر – إذا ضَمِنَ القيام به فأنت تقول: وكلّتُ أمري إلى الله إذا اعتمدتُ عليه دون سواه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1]

إنك تُوكّلُ في أمرٍ من أمورك، مَنْ كنت واثقاً بكفَايته، أو تُوكّلُ من هو أقوى منك لعجزك عن القيام بأمرِ نفسك. فإذا ما وكّلتَ مَن لا ثقةَ فيه، أو من كان عَاجِزاً، لم يقدر على قضاء أمرك، فقد ضللت وضيّعت وأسأت.

والناس في أحوالهم إمَّا أن يطلبوا دَفعَ ضُرٍّ يتوقعونه، أو هَمٍ واقعٍ بهم، أو يرجون مَنْفَعَة.

فمنْ ذا الذي يملك أن يدفع الضُرُّ ؟ لا يملك ذلك إلا الله وحده ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2]

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[3]

---

(١) الفاتحة : ٥.

(٢) الأنعام : ١٧.

(٣) التوبة : ٥١.

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣)

---

(١) النمل : ٦٢-٦٤.

(٢) الملك : ٢١،٢٢.

(٣) الملك : ٢٨-٣٠.

أخي المسلم:

إنَّ التوكل شرط في الإيمان ينتفي الإيمان عند انتفائه، ولا يوجد إيمانٌ بغير توكل على الله ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [1]

أخي المسلم:

روى البخاري في صحيحه، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما–: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ،وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [2] » [3]

وفى رواية أخرى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – قَالَ: « كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » [4]

أخي المسلم:

لعلك تعرف نتيجةَ صِدق التوكل في الحالين: حال ابراهيم عليه السلام وقد اعتمد على الله وحده، والتجأ إليه دون سواه.

---

(١) يونس : ٨٤ – ٨٦.

(٢) آل عمران : من الآية ١٧٣.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

كانت النتيجة ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ ﴾ (١)

أما حالُ مَنْ كان خُلُقُهُ القُرآن ﷺ فكان نتيجة توكله على الله وهو يقول: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ ﴾ (٢)

❁❁❁

في الحديث عن التوكُّل الذي أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ به في قوله: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾ (٣) بعد قوله: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ ﴾ (٤) عرفنا حقيقة التوكل ونتيجته، وكان من نتيجة صدق العبودية لله والتوكل عليه دون سواه أن نجَّا اللهُ ابراهيم وجعل الذين أرادوا به كيداً هم الأخسرين: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ ﴾ (٥)

---

(١) الأنبياء :٦٩، ٧٠.
(٢) آل عمران : من الآية ١٧٣.
(٣) المُزّمل : ٩.
(٤) المُزّمل : ٨.
(٥) الأنبياء : ٦٨-٧٠.

وكم نصح ابراهيم لقومه، وكمْ دعاهم إلى عبادة الله وحده، وبيَّن لهم صدقَ التوكل عليه وحُسن التوجه إليه؛ لأنَّه لا أحد يملك مع الله شيئاً ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾[1]

ماذا بقي من أمرِ الإنسان حتى يرجوه من الناس ؟ خَلْقٌ وهداية، طعام وشراب، مرض وشفاء، موت وحياة، جنة ونار. ماذا يملك العباد من كل هذا حتى يتوجه مُتَوجِّهٌ إليهم أو التوكل عليهم ؟ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾[2]

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[3]

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[4]

---

(١) الشعراء : ٧٨-٨٢.

(٢) الحَجّ : ٧٣.

(٣) العَنكبوت : ٤١.

(٤) المزمل : ٨،٩.

خُلُقٌ دَعَا القرآن إليه، وتخلق الرسول ﷺ به، توكّل على الله وحده، واستند إليه دون سواه، فعصمه وكفاه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [1]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [2] الله وحده كافيك وكافي أتباعَك ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾[3] قالها الرسول ﷺ وقالها المؤمنون عندما أخبَروا الرسول ﷺ بأن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلَ بقيتهم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾

وانظر إلى التوكل الصادق على الله.

إن الرسول ﷺ - وجراحاتُ المسلمين لم تندمل - أمر مؤذنه بأن يؤذن في الناس بطلب العَدُوِّ، فأذن مؤذنُه: أن لا يخرجَنَّ معنا أحَدٌ إلا أحدٌ حضر يَومَنا بالأمس - أي يومَ أُحد..

انظر إلى استجابة المتوكلين على الله وصدقِ بلائهم.

روى ابن إسحاق أن رَجَلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان قد شهد أحداً مع رسول الله ﷺ، قال: شهدت أُحُداً مع رسول الله ﷺ أنا وَأَخٌ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قُلْتُ لأخي أو قال لي: أتفوتُنَا غزوةٌ مع رسول الله ﷺ وكنت أيْسَر جُرحاً، فكان إذا غُلِبَ حَمَلتُه عُقبَةً، ومشى عُقبَةً، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

---

(١) الطلاق : من الآية ٣.

(٢) آل عِمرَان : ١٧٣.

(٣) آل عِمرَان : من الآية ١٧٣.

الله أكبر.. ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (١)

والنَّاس الذين قالُوا لهم ما قالوا هم النفر من عبد القَيس الذين لَقيهم أبو سفيان ومن معه في طريق عودهم إلى مكة بعد قتال يوم أُحد. وخروج الرسول ﷺ في أثرهم – قال أبو سفيان للركب من عبد القيس: أين تريدون ؟ قالوا نريد المدينة. قال: فهل أنتم مبلّغون عنّي مَحمَّداً رسالَةً أرسلُكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غَداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا السَّير إليه وإلى أصحابه؛ لنستأصل بقيتهم. فمرَّ الركب برسول الله ﷺ وهم بحمراءَ الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (٢)

إنَّه التوكل الصادق الذي به يُحسن الاستجابة إلى الله ولا يُقَصِّر في مرضاته.. إنه التوكل الذي يحقق النصر بإذن الله، توكل الذين يأخذون أنفسهم بأمر الله ويرجون رحمته ولا يقعدون أبداً عن الأخذ بكافة الأسباب التي أمر الله بها ورتَّب النتائج عليها. فالله قد وعد بنصر المؤمنين ووعدُه لا يتخلف إنْ هُم نصروه في أنفسهم، وأقاموا

(١) آل عمران : ١٧٢،١٧٣.

(٢) آل عمران : من الآية ١٧٣، الآية ١٧٤.

حدوده بينهم، ونفذوا شريعته، وهم لن يكونوا مؤمنين إلا بذلك فإن حققوا هذه الأسباب تحقق وعد الله لهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾[1]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٤٧ ﴾[2]

لا بُدَّ أن يحقق المؤمن جميع الأسباب التي أمر الله بها ورتب النتائج عليها، عندئذ يتحقق وعدُ الله ﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾[3]

✿✿✿

أيها القارئ الكريم:

رأيتَ كيف كان توكلُّ رسول الله ﷺ ومَن معه من المؤمنين. إنهم يتوكلون على الله وهم يطيعون أمره، يعملون جميع الأسباب التي أمر بها ورتَّب النتائج عليها.

---

(١) محمَّد : ٧.

(٢) الأنفال : ٤٥-٤٧.

(٣) الروم : ٤-٧.

وقد رأيتهم وقد أمر الرسول ﷺ مؤذنه أن يؤذن في الناس بطلب العَدوِّ بعد يوم أحد. كيف ﴿ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ (١)

إنهم وقد أطاعوا الله ورسوله وأحْسَنوا الاستجابة في كلِّ ما يدعوهم، يعتمدون على الله وحده في مواجهة الشدائد والخطوب. بل يعتمدون في جميع شئونهم عليه. مبرءون من حولهم وقوتهم إلى حَوْل الله وقوته.. يؤمنون أن هدايتهم وتوفيقهم ونصرهم من عند الله وحده، ويتهمون أنفسهم دائماً بالتقصير، فإذا ما تخلَّف نصر، أو تعوق فتح، عادوا إلى أنفسهم فاتهموها، وعرفوا أنه ما تخلَّفَ النصر إلا بذنب أو معصية، فيذكِّر بعضهم بعضاً ويوحي بعضهم لبعضهم. « إنَّ ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم، وما لم ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ».

إن التوكل على الله ليس فيه قعودٌ أو قنوط. بل هو الثقة والأمل والحركة المبصرة الهادفة التي لا تني ولا تضعف، ولا تهنُ ولا تذلُ ما دامت ترجو الله واليومَ الآخر.

وتأمَّلْ أمر الثقة في الله مع مؤمن فَقَدَ من البلاء بصرَه، فأبقى اليقين أملَه، وأفسح رجاءَه ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٢)

إنه - وهو يعلن أمله في الله - لم يقعد، بل أمر أولاده بالتحرك. وكأني والله أرى -فيما سجله القرآن الكريم - له حركة النفس وحركة الحس معاً في كلمات تكاد أحرفها أن تُرى متوثبةً متحركة (اذهبوا. تحسسوا. لا تيأسوا).

---

(١) آل عمران : من الآية ١٧٢.

(٢) يوسف : ٨٧.

إن الذين يتحدثون عن التواكل في حياة هذا الدين، قوم قد عميت بصائرهم أو ساءت ضمائرهم.

أيُّ قوة يمكن أن تُقابل بها أحداثُ الحياة مثلُ هذه القوة ؟ وأيُّ رجاء يمكن أن تَستقيم معه شئون الحياة بعد هذا الرجاء ؟ بل أيُّ حركة مهذبة يمكن أن تنبع من نفس المصاب فَتَدْفَعُه إلى عمل الدنيا والآخرة، ولا تدعه يَهْوي صريع الألم واليأس والانقباض والحسرة.

لا أحال الذين يتحدثون عن التواكل - في ظل هذا الشموخ الفذ للعواصف الهوج - إلا قوماً تأملوا هذا الدين في جُثث الذين حُملُوا على الدِّين ولَمْ يحملوه. ولو طلبوه في تربتة الحقيقة، وأخذوه من معين الأصل، لوجدوا أنفُسَهم أمام حركة لا هدأ، وإزاء فطرةٍ رشيدة تتخذ من تعمير الدنيا واكتشاف مكوناتها سبيلاً إلى الخشوع في محراب الخالق والتوصل إلى جناته، ووجدوا أن الحركة التي ينشدها هذا الدين ليست لغرض محدود أو رغبة طارئة، تتوقف إذا تحقق الغرض، وتنته إذا انتهت الرغبة، بل هي حركة موصولة باتصال الخلق، متصلة بدار الحق. ﴿ **وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾** ﴾[1]

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِه لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا »[2]

---

(١) التوبَة : ١٠٥.

(٢) رواه الترمذي.

في هذا الحديث نلمس حركة السعي والعمل عند الطير الذي رُزق، تغدو وتروح. وعندما يَعْجِزُ الطير عن السعي قد نرى الرحمةَ الإلهية وهي تُلْهِمَ أمَّة الطير أن يقوم بعضُ أفرادها بعنايته ورعايته والقيام على خدمته، حتى يَعُودَ معافى أو يَلْقى أجله.

قال البيهقي في شعب الإيمان: ليس في هذا الحديث دَلالةٌ على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدلُّ على طلب الرزق؛ لأنَّ الطير إذا غَدتْ فإنها تغدو لطلب الرزق، وإنما أراد – والله أعلم – وتوكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم، ورأوْا أنَّ الخيرَ بيده، ومِنْ عنده لم ينصرفوا إلاَّ سالمين غانمين كالطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً.

إن المسلمين لم يفهموا قط أن التوكل قعودٌ عن طلب الرزق، بل فهموه – كما قلت – حركةَ حياة مستجيبة لله ورسوله في كل ما أمر، أخذَة بجميع الأسباب دونَ بَغْي أو قنوط.

وتأمل ما يقوله ابن المبارك لأبي عليٍّ الفَضيل ابنِ عياض عندما قال له: « أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبُلْغَة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسانَ إلى البلد الحرام، كيف ذا وأنت تأمر بخلاف ذاك ؟ » فقال ابنُ المبارك: « يا أبا علي، أنا أفْعَلُ ذا لأصونَ بها وجهي، وأُكرِمَ بها عِرْضي، وأستَعينَ بها عَلَى طَاعة ربِّي. لا أرى لله حَقًّا إلا سارعت إليه حتى أقدمه »، فقال له الفُضَيْلُ: « يا ابنَ المبارك، ما أحسَنَ ذَا إنْ تَمَّ ذَا »

وفي صحيح البخاري عَنْ الْمِقْدَامِ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » [1]

(١) رواه البخاري.

أخي المسلم:

إن التوكل سعي وعملٌ، وثقةٍ في الله لا تتزعزع، واعتماد عليه دون سواه توجه إليه بالقصد والعمل.

روي عن معاوية بن قرة أن عمر بن الخطاب ﷺ أتى على قوم فقال: ما أنتم ؟ فقالوا: نحن المتوكلون، فقال: بل أنتم المتكلون [1] ألا أخبركم بالمتوكلين ؟ رجل ألقى حبة في بطن الأرض، ثم توكل على ربه » [2]

لا بُدَّ من الأخذ بكافة الأسباب. فإن تَرَك الأخذ بالأسْبابِ معصية ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾[3]

إن ذكرك لله في كل عمل، واعتمادك عليه يجعلك دائماً تتقبل النتائج بنفس راضية وقلبٍ مطمئن، كما يصون سعيك من الظلم والجهل والضلال.

روى أبو داود عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ – رضي الله عنها – قَالَتْ: « مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ » [4]

أيها القارئ الكريم:

لقد عرفت التوكُّل وحقيقته، وإنه أخذٌ بالأسباب، واعتمادٌ على الله، وثقة به.

---

(١) يعني على أموال الناس.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٣) الملك : ١٥.

(٤) رواه أبو داود.

obeikandl.com

إنه حركة حياةٍ لا تعرف القعود ولا القنوط. ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾ (١)

إن التوكل اعتماد القلب على الله وحده، وهو لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب ولا ادخار المال، كما لا يناقض الاحتراز والتَّحفـــظ، وقد قال ﷺ: « إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » (٢)

إن الله الذي أمر بالتوكل هو الذي أمر بالإعداد والأخذ بالأسباب ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (٣)، وقد قال ﷺ للأعرابي الَّذي جاءه وترك ناقته بباب المسجد، فسأله رسول الله ﷺ عنها فقال: أطْلَقْتُها وأتوكل على الله ! قال: « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » (٤)

ونرى الحق – جَلَّ وَعَلاَ – يأمر بأخذ الحيطة من العدو والتحرز منه ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ

(١) المزمل : ٨،٩.
(٢) رواه البخاري.
(٣) الأنفال : من الآية ٦٠.
(٤) رواه الترمذي.

وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [1]

والنبي ﷺ وهو يعلن ثقته في الله واعتماده عليه يقوله لأبي بكر رضي الله عنه: ((ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ ﴾ [2])) قد أخذ بكافة الأسباب للتخلص من أذى المتآمرين على قتله، وكان أبو بكر يسد ثقاب الغار الذي نزل فيه.

إن التوكل ثقة القلب بالله ﷻ وليس منه طرحُ الأسباب التي أمر الله بها، بل إنَّ ذلك ينافيه ويخالفه ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [3]

إنهم عاملون وليسوا كسالى أو قاعدين ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

❁❁❁

(١) النساء : ١٠٢.

(٢) التوبة : من الآية ٤٠.

(٣) العنكبوت : من الآية ٥٨، الآية ٥٩.

أثر التوكل ونتيجته:

أخي المسلم: أما وقد عرفت التوكل وحقيقته تعال بنا نعرف من لسَان الصادقِ المصدوق ﷺ أثره ونتيجته.. **في صحيح مسلم عن ابْن عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – عَنْ النَّبيِّ ﷺ قَالَ:** « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَن، وَالنَّبيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ. إذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ،فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: هَذِه أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ. ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ،فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّه ﷺ،وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّه. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ: مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيه ؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هُمْ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ » (١)

وروى الترمذي عن أَنَسِ بْنِ مَالِك ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: « إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِه فَقَالَ: بِسْمِ اللَّه، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّه، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّه. قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ ؟! » (٢)

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي.

وفي الحديث المُتَّفق عليه – وهذا لفظ مسلم – عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ – لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ – أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ » [1]

أخي المسلم:

تأمل قول الرسول ﷺ في آخر الدعاء: « **أَنْتَ الحيَّ الَّذي لا يَموتُ. والجِنُّ والإنْسُ يموتونَ** »

على من يكونُ التوكل ؟

على أحدٍ من الجن أو الإنس ؟ إنهم جميعاً يموتون، والتوكل لا يكونُ إلا على الحـــي الذي لا يموت ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾[2]، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾ ﴾[3]

أخي المسلم:

إن نجاتَك في صدقِ عقيدتِك، فاحذرْ أن ينصبَ لك الشيطان آلهة من الهوى والباطل يدعوك إليها فتستجيبَ له. إن الجنَّ والإنس يَموتون، وهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ﴿ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[4]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الفرقان : ٥٨.

(٣) الأنفال : من الآية ٤٩.

(٤) الفرقان : من الآية ٣

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾[1]

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ ﴾[2]

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[3]

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[4]

اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه.

﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

أيها القارئ الكريم:

كل إنسان يسعى وراء أملٍ يريد تحقيقه. وكم يَبْذُلُ في تحقيق أمله من جَهْد وكَدٍّ.

---

(١) الأعراف : ١٩٤.

(٢) الأعراف : ١٩٧.

(٣) العنكبوت : ١٧.

(٤) المزمل : ٨،٩.

وهناكُ آمالٌ لكثير من الناس يَرَوْنها قُربَ أعْيُنِهم، حتى إذا ما اقتربوا - بعد ما حَسِبوه قريباً - وجدوه سراباً خادعاً ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١)

وكم من ناس يقضون حياتهم وراء هذا السراب فإذا انتهت آجالهم وضح لهم بطلانُ سعيهم وضلال غايتهم.

هناك أسئلةٌ فطرية يتحدد بها سلوكُ الإنسان، بل تُحدد غايته.

الإنسان يقيم في الحياة الدنيا أيّاماً معدودة محدودة ثم يرحل.

لِمَ جاء إلى الحياة ؟ وإلى أين المصير ؟

إن هذا الخُلُقَ العظيم ينبئ عن حكمة بالغة وغاية راشدة.

إن الحياة لم تُخلقْ عبثاً ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢)، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (٣)

---

(١) النور : من الآية ٣٩.

(٢) ص : ٢٧-٢٩.

(٣) المؤمنون : ١١٥، ١١٦.

إنَّ كل شئ في هذا الكون ينبئ عن الحكمة، وهو يمضي لغايته في اتساق بديع ونظام دقيق ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]

والذين يدركون الغاية من الخلق. ولا يقعون فريسة الخداع الزائف والبريق الخادع من متاع الدنيا وزينتها - هم الذين يحسنون التوكل على الله والاعتماد عليه وحده دون سواه هم يرون أن كلَّ شئ خاضع لقدرته يتحقق بأمره ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[2]

وهؤلاء هُمُ الذين تنتصر بهم الفضائل وتتحقق القيم؛ لأنهم - في جميع أحوالهم - يذكرون الله ويعتمدون عليه ولا يَرْجون سواه. فما في أيْديهم مبذول للناس، وما يسعون إليه هو تحقيق الخير للناس ما يشغل نفوسهم هو الاستجابةُ لدوافع إيمانهم الذي يفرض عليهم أن يكونوا دُعاة خير وبرٍّ بسلوكهم وأعمالهم.

وهم - بتوكلهم على الله - ليسوا أسْرى منفعة زائلة يشغلون من أجلها حياةَ الناس بالنفاق والكذب والدس والوقيعة، إنهم يرون جميعَ أمرهم بيد الله وحده، وهو حسبهم وكافيهم. وهو نِعْمَ المولى، ونِعْمَ النصير..

هؤلاء بتوكلهم على الله يصححون ما فسد من أحوال الناس، ويقدمون النصح لهم، ولا يرون لأنفسهم فضلاً فيما يصنعون، بل الفضل لله الذي هداهم للإيمان ووفقهم إليه. وتلك وحدها تجعل عمل البر خالصاً لله بعيداً عن المن والأذى.

---

(١) يس : ٤٠.

(٢) الأعراف : من الآية ٥٤.

والإنسانُ كلَّما قصد بسعيه وجه ربِّه، كلما سَعِدَ الناس ببره، وطابت نفوسهم بخيره.

أخي القارئ:

نحن مع الآية الكريمة من سورة المزمل ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾ (١)

وقد عرفنا حقيقة التوكل، وأنه حركة حياة لا تعرف القعود ولا القنوط. إنه اعتمادٌ على الحي الذي لا يموت.. والإنسان بهذا التوكل دائمُ الأمل والعمل، معتدلٌ مع النعماء والضراء، لا يُرَى مع النعماء فَرِحٌ، ولا مع الضراء يئوسٌ كفور.

إن أقبلت النعماء كان منطقه معها ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠ ﴾ (٢)

وإن وقع البلاء كان منطقه ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧ ﴾ (٣)

أخي المسلم:

ترى ما يصنعه الاعتماد على الله من استقرار للنفس وطمأنينة للقلب. واستقامة في السلوك. بل من حركة حَيَّة معمرة لا تعرفُ اليأس ولا القنوط، كما لا تعرف البغي ولا التسلط.

كم من داع إلى الحق حُورب من أهل البغي والباطل، فلم تضعف عزيمته بسبب اعتماده على ربه ﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟

---

(١) المزمل : ٨،٩.

(٢) النمل : من الآية ٤٠.

(٣) يُوسُف : ٨٧.

وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (١)

هذا هود عليه السلام يقف منه قومه موقف العناد، فلا يُرى منه إلا الثباتُ والمضيُّ في طريق الحق، مستنداً إلى الله معتمداً عليه ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٢)

وهذا شعيب عليه السلام يُعلن توكله واعتماده على ربه وهو يمضي في طريق الإصلاح والدعوة إلى الحق ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٣)

إن التوكل على الله يمضي بالمتوكلين إلى العمل الجاد الذي لا يتوقف، والصبر على الشدائد ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٤)

هذا يعقوب عليه السلام بعد نصيحته لأبنائه ألا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا من أبواب متفرقة يقول: ﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا

(١) آل عمران : من الآية ١٤٦، ١٤٧.
(٢) هود : ٥٦.
(٣) هود : من الآية ٨٨.
(٤) إبراهيم : ١٢.

لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (1)

أخي المسلم:

إن التوكل - كما ترى - مُقْتَرنٌ بجلائل الأعمال، دَافِعٌ إليها لا يعْرفَ القعود ولا القنوط، لا يعرفُ الجمود ولا التواكل. إنه حركةُ حياةٍ مُعْتمدة على الحي الذي لا يموت.

فبالتوكل على الله تقوم الحضارة التي يُرى فيها الإنسان بأخلاقه وفضائله.

وبغير التوكل على الله تكون الحياة غابةً يرى فيها الحيوان بضراوته وظفره ونابه.

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ (2)

✿✿✿

(1) يُوسُف : من الآية ٦٧.

(2) الأحزَاب : ٤٨.

obeikandl.com

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

أيها القارئ الكريم:

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [1] ما أغلاها كلمة، وما أبقى أثرها، وما أعظم نتائجها.

قالها إبراهيم عليه السلام عندما أُلقِيَ في النار، فكانت النار - بأمر الله - برداً وسلاماً.

وقالها رسول الله ﷺ حين قال لهم الناس: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [2]

وقالتها عائشة - رضي الله عنها - حين حملها (صَفْوانُ بنُ المعطَّل) على الراحلة، وخاض الناسُ في حديث الإفك وهي لا تدري، فبرأها الله مما قالوا.

ذكر ابن جرير في تفسيره عن محمد بن عبد الله بن جحْش قال: تفاخرت عائشةُ وزينب - رضي الله عنهما - فقالت زينب: أنا التي نزل تزويجي من السماء. وقالت عائشة - رضي الله عنها -: أنا التي نزل فيَّ كتابَ الله عز وجل حين حملني صفوانُ بنُ المُعَطَّل على الراحلة، فقالت لها زينب: يا عائشة ما قلتِ حين ركبتها: قالت: قُلْت: حَسْبِيَ الله ونعم الوكيل: قالت قُلْتِ كلمةَ المؤمنين.

---

(١) آل عمران : من الآية ١٧٣.

(٢) آل عمران : من الآية ١٧٣، الآية ١٧٤.

إي والله إنها لكلمةُ المؤمنين، فما مِنْ مُؤْمنٍ يعرفُ ربَّه إلا ويتوكل عليه، إنها كلمة المؤمنين يقولونها وهم يُخَوَّفون بجموع الناس وكثْرتهم، فلا يخشونهم، بل يعتمدون على الله وحده، ولا يزيدُهم تخويفُ أعدائِهم إلا إيماناً بالله وثقةً فيه ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾

نعم لقد قالت عائشة - رضي الله عنها - كلمةَ المؤمنين، استمسكتْ بها عندما فقدت الدفاع عنها من أقرب الناس إليها، من والِدها وأمِّها، وما يملكان لها من الأمر شيئاً.

قال الرسول ﷺ بعد أن جلس في منزل والدها وتشهد. وكان قد لبث شهراً لا يُوحَى إليه في شأنها. قال: « أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كنْتِ برئيةً فسيُبرؤك الله. وإن كُنت ألْمت بذنب فاستغفري الله وتُوبي إليه؛ فإن العبدَ إذا اعترف بذنبه ثم تابَ إلى الله تَابَ اللهُ عليه »، قالت: فلما قَضَى رسولُ الله مَقَالَتَه قَلصَ دمْعي حتى ما أحِسُّ منه قَطرة، فَقُلْتُ لأبِي: أجِبْ رسولَ الله ﷺ فيما قال.

قال: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ فقُلْتُ لأمِّي: أجيبي رسولَ الله ﷺ قالت: ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ.

فقالت: فَقُلْتُ - وأنا جاريةٌ حديثَةُ السِّن لا أقْرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد عَلِمْتُ لَقَدْ سمعتُمْ هذا الحديث حتى استَقرَّ في أنفُسكم وصَدَّقتم به، فلئن قلتُ لكم إنِّي بريئة - والله يعلم أنِّي بريئة - لا تصدِّقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ - والله يعلم أني منه بريئة - لَتُصَدِّقُنِّي، والله ما أجدُ لكم مثلاً إلاَّ قولَ أبي يوسف، قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

(١) يُوسُف : من الآية ١٨.

إنها الكلمة، بمن تستعين ؟ وعلى من تتوكل ؟ على الله وحده، وتأمل حين تراها لا تنس ما أرادت أن تستشهد وإن نسيت اسم قَائله، ففي رواية هِشام بنِ عروة « **والتَمَسْتُ اسم يعقوب فلم أقْدِر عليه** »، وفي رواية أبي أوَيْس: « **وَنَسِيتُ اسْمَ يَعْقُوبَ؛ لِمَا بِي مِنَ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ وَاحْتِرَاقِ الْجَوْفِ** » [1]

والله ما أجِدُ لكم مثلاً إلا قولَ أبي يوسف، قال: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾** ﴾

قالت: ثم تحولتُ فاضطجعتُ على فراشي. قالت: وأنا حينئذ أعَلَمُ أنِّي بريئة وأنَّ الله مُبرِّئي ببَراءَتي. ولكنْ والله ما كنت أظُنُّ أنَّ اللهَ مُنْزِلٌ في شأني وَحْياً يُتلَى، ولشَأني في نفسي كان أحْقَرُ مِنْ أن يتكلم اللهُ في بأمْرٍ يُتْلَى ولكنْ كنْتُ أرجو أن يرى رسولُ الله ﷺ في النوم رؤيا يبرِّؤني اللهُ بها.

قالت: فوالله ما رامَ رسولُ الله ﷺ ولا خرج أحَدٌ من أهلِ البيت حتى أُنزِلَ عليه، فأخذه ما كان يأخُذُه من البُرَحَاء. حتى إنَّه ليتحدَّرُ منه مثلُ الجُمَانِ من العَرق وهو في يومٍ شات من ثقَلِ القول الذي يترلُ عليه.

قالت: فلما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ سُرِّيَ عنه وهو يضحك. فكانت: أولُ كلمةٍ تكلَّمَ بها: يا عائشة، أمَّا اللهُ ﷻ فَقَدْ بَرَّأك. فقالت أمي: قومي إليه. قالت: فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمدُ إلاَّ اللهَ ﷻ.

وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: فقال لي أبواي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمدُه ولا أحمدُكما، ولكن أحْمَدُ الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيَّرتموه.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني

اللهُ أكبر.. مواقف حيَّة ترى فيها أدبَ القرآن وخُلُقَه. تراه في موقف الصديق وهو يقبل رأس ابنته أم المؤمنين بعد أن نزل عُذرها فتقول له: ألاَ عذرتني ؟ فيقول: أيُّ سماءُ تظلُّني وأيُّ أرض تقلني إذا قلت ما لا أعلم.

تراه في موقف عائشة - رضي الله عنها - من أول الأمر إلى نهايته، وهي تعتصم بالله، وتستعين به، وتتوكل عليه.. فأنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات، جاء به الروح الأمين، فليس في الأرض مسجد إلا وهو يتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار.

أخي المسلم:

استمسك بدينك، واستعنْ بربك، واقصُدْ بعملك دائماً وجه الله؛ فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه. ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (١) ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (٢)

أيها القارئ الكريم:

إن القيم والفضائل ليست سلعاً تباع وتُشترى، ليست سبيلاً للكسب الرخيص والمنفعة الزائلة.

إن الأخلاق الفاضلة قد تضطر صاحبها أن يبذل في سبيلها كل مرتخص وغال، ولا يستطيع أن يخرج على قانونها أو يُخالف حكمها.

إن العقيدة تمنحها روح الثبات والتجرد من المنافع والتخلص من الرياء الكاذب، فلا ينهى الإنسانُ عن خلقٍ ويأتي مثله.

ومعلمُ نفسِه ومؤدِّبُها أحقُّ بالاحترامِ من مُعلِّمِ الناس ومؤدِّبهم.

---

(١) آل عمرَان : من الآية ١٠١.

(٢) المزمل : ١٠.

obeikandl.com

و لم أر أغنى نفساً من صاحب الخُلُق، إن ميزانه ثقيل عند الله يوم تخف موازين.

والرسول ﷺ يشير إلى غناه في تعريفه للمفلس، فيما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: « **أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِه، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِه، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ** » [1]

فالذي استمسك بالأخلاق فكفَّ لسانه ويده إلاَّ فيما ينبغي هو الغني؛ لأنه لم يبدِّد عمله الطيِّب في الإساءة إلى هذا أو ذاك.

روى أبو داود بإسناد صحيح عن أَبِي أُمَامَةَ الباهلي ﷺ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه** ﷺ: « **أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا،وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ** » [2]

وروى الترمذي عن جَابِرٍ ﷺ **أَنَّ رَسُولَ اللَّه** ﷺ **قَالَ:** « **إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ** »[3]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه الترمذي.

أخي المسلم:

إن الاستمساك بالأخلاق الفاضلة يستوجب صبراً أيَّ صبر، في زحمة الحياة ومفاتنها وتباين أخلاق الناس فيها، وبخاصةٍ إذا فسد أهلُ زمانٍ وقلَّ أعوانُ الخير فيه.

فأيّ صبر إذن يكون عليه الرسل وهم يواجَهُون بُركامٍ من فساد أهل زمانهم في العقيدة والسلوك، إنَّهم يدعونهم إلَى الخَير ويأمرونهم بالمعروف فلا يجدون من أقوامِهم إلاَّ الإساءةَ والسفاهةَ والجحود.

أيُّ صبر يكون صبر الرسول ﷺ وهو يُحسن إلى قومه وهم يسيئون إليه، وهو الصادق فيهم وهم يتهمونه بالكذب، وهو يَطلب النجاة لهم وهم يُدبرون قتله ويعذّبون أوْ يقتلون صَحْبَه.

إنه صبرُ المعتمدِ على الله المطيع أمرَه ﴿ **وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝** ﴾[1]

إنه صبرُ الكريم الذي يستمسك بالحق الذي أُنزل عليه، ولا تصرفه عنه سفاهةُ السفهاء، إنَّه ماضٍ في طريقه لا يهن ولا يضعف ولا يستكين: « **وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ** »[2]

إن الله يأمره بالصبر على ما يقوله سفهاءُ قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً وهو الذي لا عِتاب معه. اهجرهم وخلِّ بيني وبين المكذبين، فأنا كفيل بهم ﴿ **وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝**

---

(١) المزمل : ١٠.

(٢) سيرة ابن هشام.

وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿١٩﴾ ﴾[1]

إن الرسول ﷺ يمضي في دعوته معرضاً عن سفاهة السفهاء، صابراً كما أمره ربه ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[2]

إن التمسك بالحق والثبات عليه يحتاجُ إلى الصبر. وانظر إلى حال رسول الله ﷺ وقد كان خُلُقُهُ القُرآن، كيف كان صبره وتحمله في سبيل الدعوة إلى الله وابتغاء مرضاته.

في الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ » [3]

وروى البخاري عَنْ خَبَّاب بْنِ الأَرَتِّ ﷺ قَالَ: « شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ؟ أَلا تَدْعُو اللَّهَ

(١) المزمل : ١١-١٩.
(٢) طه : من الآية ١٣٠.
(٣) رواه البخاري.

لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ »[1]

أخي المسلم:

إن الاستمساك بالحق والتمسك بالأخلاق يحتاج إلى ثبات وصبر أمام النعماء والضراء؛ حتى ينعم الإنسان في جميع الأحوال بمرضات ربه ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[2]

✿✿✿

(١) رواه البخاري.

(٢) آل عمران : ١٤٧.

مع آيات من سورة الحجرات

أيها القارئ الكريم:

تتفاوت نفوسُ الناسِ تبعاً لتباين غاياتهم واختلافِ مَقَاصِدِهم.

وهم يسلكون في سبيل تحقيق أغراضهم وسائل شتى؛ فمنهم من يُخضِعُ هواه لدِينه، ومنهم من يحاول إخْضَاعَ دينه لهواه.

وما أضل سلوك الإنسان عندما يتخذُ من الدين مبرِّراً لمقاصده الدنيوية وغاياته المنحرفة.

وكم للناسِ إلى الناس من مداخل، وكم من نجوى في غير طاعة الله.

إن تربية الضمير أساسٌ في صِدق القصد ووضوح السلوك.

وإذا بَعُدت بالناسِ عن الحق أَغْراضُهم فَلاَ تسلْ عما يَقعُ بين العباد من فسادٍ وإفساد.

ومن رحمة الله بالعباد أن الله لا يتقبل منهم عَمَلاً إلاَّ إذا كان خالصاً لوجهه.

ووجه الرحمة فيه - مع ما يناهم من ثوابِ الله وفضله في الآخرة - أنَّ كل عملٍ لا يُقصد به وجهُ الله لا يَسْلَمُ الناسُ من شرِّه وأذاه.

ومن قبل بني أهل النفاق مسجداً ودعوا رسول الله ﷺ إليه، مظهرين ولاءهم له، مُقسمين أنهم ما أرادوا ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس ﴿ **وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ** ﴾[1]

(١) التوبَة : من الآية ١٠٧.

جاءوا يقسمون على حسن نيتهم وهم يُضمرون أسوأ شرٍّ وأقبحَ عذر جاءوه ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: « يا رسول الله. إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، وإنا نُحبُّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه »، وحقيقةُ الأمر أنهم كانوا يصلون بمسجد قُبَاء، فقال لهم أبوُ عامر الراهب: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح؛ فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند فأُخرج مُحمَّداً وأصحابَه، فلما بَنوه رغبوا إليه ﷺ أن يصلّيَ فيه، فوعدهم أن يُصلّيَ فيه إذا عاد من تبوك إن شاء الله.

فلما قفل - عليه الصلاة والسلام - راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يَبْقَ بينَه وبينها إلاّ يَوْمٌ أو بعضُ يَوْم، نزل جبريل عليه السلام بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكُفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم (مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى). فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مَقْدمه إلى المدينة ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1]

فليأخذ المؤمنون حذرهم مما يُبْدِيه أعداؤهم من حسن النية، وليكونوا دائماً على صِدق وعي وإخلاصِ قصْد، وليحذروا من كلمة السوء في إخوانهم، وليتثبتوا قبل الحُكم عليهم أو التصرف معهم.

فكم من مدخول النية سيئ القصد دخل على الناس بقولٍ من عنده فأفسد الصِّلات وقطّع الروابط، ولذا كان من واجب المؤمنين دائماً أن يتثبتوا في حكمهم،

(١) التوبَة : ١٠٧.

وأن يتبينوا حقيقة ما أُلْقِيَ إليهم؛ فكثيراً ما أفضى التسرع في الحُكم إلى الندم والحسرة.

وليتعلموا من رسول الله ﷺ - وقد **كان خُلُقُهُ القُرآن** - كيف كان يتثبت من الأنباء قبل أن يُصْدر حكماً عليها، والله - جَلَّ وَعَلاَ - يقول: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦** ﴾[1]

نزلت في الوليدُ بن عقبةَ بنِ أبي مُعيط، لما بعثه رسولُ الله ﷺ إلى بني المصْطَلق - بعد الوقعة - مصدِّقاً - وكان بينه وبينهم عداوةٌ في الجاهلية - فلما سمع به القوم تَلَقَّوه، تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قَتْلَه، فَهَابهم ورجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني المُصْطَلق منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله ﷺ وهَمَّ أن يغزوهم، فبلغ القومَ رجوعُه، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك، فخرجنا نَتَلقَّاه ونُكرِمُه، ونؤدي إليه ما قِبَلَنا من حَقِّ الله، فبدا لنا، فخشينا أنَّه إنَّما ردَّه من الطريق كتابٌ جاءه منك لغضب غضبته علينا، وإنَّا نعوذُ بالله من غضبه وغضب رسوله، فبعث الرسول ﷺ خالدَ بنَ الوليد خُفْيَةً في عسكر، وأمَره أن يُخْفِيَ عليهم قُدُومَه، وقال: « **انظر، فإن رأيت منهم ما يدلُّ على إيمانهم، فخُذ منهم زكاةَ أموالهم. وإن لم تَر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعملُ في الكفار** » ففعل ذلك خالد، ووافاهم فسمع منهم أذانَ صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم ير منهم إلاَّ الطاعة والخير، فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فنزلت ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن** ﴾

(١) الحجرات : ٦.

تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

أخي المسلم:

إن المخْرج من الوقوع فيما يزينه الشيطان من باطل - أو ينقله أهل الفسق من كذب وافتراء - أن نعتصم بكتاب ربِّنا وسنة نبينا، فنتبينَ ونثبتَ ونطيعَ أمر الله فيما نفعلُ أو ندع، مستعينين به متوكلين عليه ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [1] وهو بحمد الله فينا بسنته وبما تخلَّق به من كتاب ربِّه.

اللهم حببْ إلينا الإيمان وَزَيِّنْهُ في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجْعلنا من الراشدين.

✿✿✿

(١) الحجرات : من الآية ٧.

obeikandl.com

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ ﴾

أيها القارئ الكريم:

إن الله خلق الإنسان وكرَّمه ورزقه وفضَّله على كثير ممَّن خلق ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠ ﴾[1]

وإن الإسلام – بهديه وسنته – ينشد مجتمعاً ذا أدبٍ رفيعٍ، لا تُمسُّ فيه كرامةُ الإنسان بقولٍ أو فعل.

واسمع نداء المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾[2]

لا يسخر رجالٌ من رجال؛ عسى أن يكونوا عند الله خيراً منهم، ولا نساءٌ من نساء؛ عسى أن يكنَّ عند الله خيراً منهن.

كثيراً ما يزن الناس أمورهم بمظاهر الحياة من حولهم، فيجعلون من التباين في الغنى والفقر والجمال والقبح، والعطاء والمنع مقياساً يزنون به أنفسهم، وينظرون إلى

(١) الإسراء : ٧.

(٢) الحجرات : ١١.

الناس من حولهم ساخرين مستهزئين، أو مُكرِّمين مقدِّرين.

ويعلمنا رسولُ الله ﷺ ألاَّ نُخدع بالمظاهر، وألا يكون حُكمنا على الناس من صورهم وأشكالهم دون حقيقتهم وسلوكهم.

وفي الحديث المتفق عليه عَنْ سَهْل بن سعد الساعدي ﷺ قَالَ: « مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ. قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْتَمَعَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا »[1]

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: « رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّه لأَبَرَّهُ »[2]

إن المؤمن الصادق يشغله عيبُه عن عيوب الناس، فيُمسكُ لسانَه إلا فيما ينبغي، وكم خُدِعَ الناس بمظاهر دون التأمل في حقيقتها، ولو جعلوا دينَ الله مقياساً لحكمهم والتزموه في سعيهم وسلوكهم، لاستقام حالُهم وتراحموا فيما بينهم وتواضعوا.

إن السخرية التي نهى الله عنها لا تنشأ إلا من التكبُّر، والكبر من أعظم خصال الشر « **لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** » [3]، « **بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ** »[4]

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾[1] أي: لا يحتقر بعض المؤمنين بعضاً، ولا يهزأ بعضُهم من بعض.

إن الركون إلى الحياة الدنيا، والطمأنينة إليها تجعل الناسَ ينسون غَدَهُم، ويُلهيهم التكاثر حتى يأتيهم أجلُهم، يتكاثرون ويتفاخرون ويبغي بعضهم على بعض.

وإن السُّخرية من المؤمنين - الذين لا ينسون الغد ويعملون له - لا تكونُ إلا من أهل الكفر والنفاق.. وانظر ماذا تكون نتيجة هؤلاء وأولئك بين يدي الله ﷻ حين ينصَبُ الميزان، وتُوزن الأعمال، وتُوفَّى كل نفس ما كسبت.

عندها تجد أهل الضلال يستصرخون طالبين الخروج من النار ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١ ﴾[2]

إن الدنيا التي ركن إليها هؤلاء واطمأنوا إليها سريعةُ التقضي، سريعة الزوال ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ

(١) الحجرات : من الآية ١١.

(٢) المؤمنون : ١٠٧ - ١١١.

ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (١)

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم:

انظر إلى مَن **كان خُلُقُهُ القُرآن**، كيف كان تواضعه مع الناس.

روى البخاري عن أَنَس ﷺ قَالَ: « إِنْ كَانَتْ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ » (٣)

وروى النسائي عن عَبْد اللَّه بْنَ أَبِي أَوْفَى ﷺ قال: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ » (٤)

وروى البخاري عَنْ الأَسْوَدِ ﷺ قَالَ: « سَأَلْتُ عَائِشَةَ – رضي الله عنها – مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ – تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ – فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاةِ » (٥)

✿✿✿

(١) المؤمنون : ١١٢ – ١١٦.

(٢) البَقَرَة : ٢١٢.

(٣) رواه البخاري.

(٤) سنن النسائي.

(٥) رواه البخاري.

أيها القارئ الكريم:

إن الإنسان مُحاسَبٌ بين يدي الله على ما قدَّمت يداه ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾[1]

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾[2]

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[3]

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[4]

ولا يصلح أمر الناس إلا بقيام هذه العقيدة في نفوسهم، ورسوخها في أعماق الضمير؛ لأن النفس التي تُوقن أنها ستُحاسَب بين يدي الله الذي لا يعزب عنه من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، النفس التي تُوقن بذلك لا تختفي بإثم، ولا تُصرُّ على منكر. إنها تبتعد عن كل ما يدين بين يدي الله وإن جرَّ مغنماً أو نفعاً عاجلاً.

---

(١) الكهف : من الآية ٤٩.

(٢) البَقَرَة : ٢٨١.

(٣) الأنبياء : ٤٧.

(٤) المؤمنون : ١٠١-١٠٣.

والمؤمن وقد طَهُر بَاطِنُه يَطْهُر ظاهره، وتخضع جوارحُه لمقتضيات هذه العقيدة التي ينادي المؤمن بها؛ ليحقق باسمها كلَّ خير ويبتعد عن كل شر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1]

نعم، باسم العقيدة ينتهي المؤمن عن كل ما يؤذي غيره، ويعصم لسانه من أذى الناس « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » [2]

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي: لا يعِبْ بعضُكم بعضاً بقول أو إشارة، سواءٌ كان على وجه يُضْحِكُ أو لا، وسواء كان بحضرته أو لا، واللمز: العيب ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فإن الهماز واللماز مذموم ملعون كما قال الله ﷻ: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾[3]

﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ ﴾ أي: لا يَدْعُ بعضُكم بَعْضاً بما يُستَكْرَهُ من الألقاب. والتنابز: التَّعَايُر والتداعي بالألقاب.

ومن أدب المؤمن ألا يُنادِي أخاه بلقب يكرهه، وقد كان رسول الله ﷺ يُغَير أسماءً وألقاباً كانت في الجاهلية لأصحابها؛ لأن فيها ما يدل على وصفٍ ذميم، وما

(١) الحجرات : ١١.
(٢) متفق عليه.
(٣) الهُمَزة : ١.

ذاك إلا ليحقق فيهم أدب القرآن ويرشدَهم - دائماً - إلى أطيب الأمور وأحسنها، ويبعدهم عن كل ما من شأنه أن يُقلل من احترام بعضهم وتكريم بعضهم بعضاً. ويدلُّهم على الكلمة الطيبة التي تُحبب النفوس وتؤلف بين القلوب، وكم من كلمة مسيئة فرَّقت جمعاً، وكم من كلمة طَيِّبَة حَققت خيراً وأبعدت شرًّا.

إن الخروج على الأدب الذي أدَّب الله به المؤمنين، وارتكاب ما نهى الله من السخرية أو اللَّمز أو التنابز فُسوق بعد إيمان، وبئس الذكرُ للمؤمنين - بسبب ارتكاب واحدٍ من هذه الأمور الثلاثة القبيحة - أن يُذكروا بالفسوق بعد اتصافهم بالإيمان.

وقد نبهنا الله ﷻ إلى طريق الخلاص من هذه الذنوب بالتوبة.. ومَن استمر على فسقه - بارتكاب هذه المنهيات - فقد ظلم نفسه بحرمانها من عفو الله ﷻ:

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

أخي المسلم:

عاملْ الناس بما تُحب أن يعاملوك به، فإذا كنت تكره أن تُنادَى بلقب لا تحبه، ويضيق صدرُك أن تجد أذى من الناس بقولٍ أو فعل، فاعلم أن الناس كذلك.

والرسول ﷺ يعلِّمُنا أنْ نُحبَّ للناس ما نُحبُّ لأنفسنا، ونكره لهم ما نكرهُه لها « **لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ** » (١)

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » (٢)

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

أخي المسلم:

إن مجتمعنا الإسلامي عاش مؤتلفاً متراحماً باتباع دينه والتخلق بأخلاق نبيِّه، وكلما فرَّط في هذه الآداب وابتعد عن هذه الأخلاق نَالَهُ ما نَالَهُ من ضعف وذُل.

إن من عظمة هذا الدين أنه لا يستخف بالعمل الطيب مهما كان قليلاً، بل يحرص عليه فيجعل في موسوع الناس جميعاً القيام به، لا فرق بين فقير وغني، وعظيم وحقير، وحاكم ومحكوم، يجعل في مقدور كل فرد - مهما كانت قيمته - أن يُسهم بقسط وافر في دعم الروابط وإشاعة الحب والألفة بين الناس « **لا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ** » (١)

في الحديث المتفق عليه عن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: فَيُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ: فَيَأْمُرُ بِالْخَيْرِ أَوْ قَالَ بِالْمَعْرُوفِ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ: فَيُمْسِكُ عَنْ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ** »(٢)

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ** » (٣)

وفي رواية: « **مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنْ الْمُسْلِمِينَ لا يُؤْذِيهِمْ. فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ** »(٤)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

obeikandl.com

وفي رواية له: « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ »[1]

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[2]

أيها القارئ الكريم:

يسيطر العلمُ بنتائجه على فِكر الناس وسُلوكهم، والعلم إن لم يخضع لدوافع الإيمان وفضائله دُمِّرَتْ نتائجه.

ومن هنا كانت تربيةُ الإنسان أساساً في جعل النتائج بارَّةً بالإنسان حيث كان.

إن فضلَ العلم لا ينكره مُنْكِرٌ؛ لأنه من أفضل نعم الله على عباده، وبه امتَنَّ على نبيِّه ﷺ ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

ولا أعرف ديناً كرَّم العلم ودعا إليه مثل ما فعل الإسلام. ومعجزتُه بين أيدينا كتاب. وكفاك أن تعلم أن الإسلام قد طلب الإيمان بالله - وهو أصلُ الأصول فيه - لا عن طريق التقليد والمحاكاة بل عن طريق التأمل والنظر.

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) النِّساء : من الآية ١١٣.

(٣) يونس : من الآية ١٠١.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١)

وإذا كانت أُولَى عقائده تُطْلَب عن طريق التأمل والنظر لا عن طريق التقليد والمحاكاة، كان ذلك دعوةً للإنسان وإغراءً له بالبحث والتنقيب، إذ لم يأت الإقناع في الرسالة العالمية التي جاء بها خاتم المرسلين ﷺ، لم يأت الإقناع فيها عن طريق معجزة زمنية يختص بها مَن رآها أو عاش في زمنها، وإنما جاء عن طريق التأمل في صفحة الكون الممتدة أمام الأجيال الوافدة؛ لتظفر الإنسانية بالدلالة والمنفعة معا. دلالة الكون على خالقه وموجده وأنَّه واحد لا شريك له. وتَجْمَعُ بالتأمل من الاعتقاد الذي يصون النفس عن التردي في مهاوي الشرك والضلال، والانتفاع الذي يحوط النفس بسياج من الرعاية والحفظ. فيكون التأمل والبحث من أبواب تزكية النفس ومنفعة الجسد، وتعاون الجماعة والتوصل إلى معرفة الله يتتبع آياته في خلقه.

وهذا أمر تتضافر عليه الأجيالُ المتتابعةُ، ويرث بعضها معارفَ بعض، وكأنها تلتقي جميعاً في موكب واحد، لا ينفصل فيه سابقٌ عن لاحق، فلا ينتهي عملها في الكون، ولا ينقضي ما في الكون من عجب..

ليس سبيل الدخول في الإسلام معجزَةً ماديَّةً مُوقَّتَةً؛ بل سبيل الدخول معجزة كتاب ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ ﴾(٢) كتابٌ يُطْلَبُ من

(١) الأنعام : ٩٩.

(٢) فُصلت : من الآية ٤٢.

الناس أن يتدبروه وأن يتفكروا فيه. وهذه المعجزة تجعل من عمل الفكر دعْماً لشرائعه، وإقراراً بعقائده، ويقيناً بآدابه وأخلاقه، وتلك آية بقائه ودلالة عظمته، وبُرهان كماله. وأنّه صالح لكلّ زمان ومكان.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[1]

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[2]

✿✿✿

إن معجزةَ هذا الدين كتابٌ بين أيدينا يدعو إلى التأمل والنظر في آياته وآيات الكون والنفس.

ولكن شتان ما بين إنسان تكون غَايتُه إشباعَ شهوة وتَحقيقَ رغبة فحسب، وبين إنسان يبحث ويتأمل ليعرف الحق ويُذْعِنَ له. وآيات الله قائمة أمام أعين الناس لترشدهم إلى الحق وتذكرهم به ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾[3]

إن النتائج في الحالتين مُتباينة. وهي ذات أثر بالغ في روابط الناس وصلاتهم.

إن النتائج التي تتحقق في أيدي الذين يحصرون أنفسهم في دائرة المنفعة والمتعة والشهوة، ستكون وبَالاً على الإنسانية وإذلالاً لها، وسيكون ميزان العدل في أيدي

---

(١) العَنكبوت : ٥١.

(٢) الأعرَاف : ٥٢.

(٣) فُصّلَت : من الآية ٥٣.

هؤلاء خاضعاً لشهواتهم وأهوائهم، وتكون القوة التي تتحقق من البحث والعمل لا لتحقيق حقٍّ وإقرار عدل، بل لإرهاب الناس وإخضاعهم لمنطق الفساد والبغي. لكن النتائج في يد المؤمن ستخضع لإيمانه، هو يعلم أن كل شئ من فضل الله وحده، وإيمانه يفرض عليه العدل مع العدو والصديق والقريب والبعيد. ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾[1]

إن الإيمان يهذّب النفس ويجعل المؤمن دائماً شديد الحساب لنفسه مذلاً لهواه.. ومن هذه النفس يكون العدلُ بين الناس بباعث من إيمان، يكون عبادة يتقرب بها إلى الله.

وهذا عمر بن الخطاب ﷺ - الذي عُرف بعدله - يراه ابنُه وهو خليفة المسلمين يحمل قِربَ ماء على كتفه، فيُنكر عليه ويقول: ما حملك على هذا ؟ فيقول عمرُ ﷺ « أعجبتني نفسي فأحببت أن أذلَّها »، وهو الذي يتوجه إلى الناس ويقول لهم: « رحم الله امرأ أهدى إليَّ عيوبي » !!

أرأيت طُلاَّب الكمال أو السائرين في طريقه، كيف أتاحت لهم هذه العقيدة أسباب الكمال الحقيقي والرفعة الصادقة.

إن تربية النفس هي السبيل لحسم الشر الذي يفتك بروح الاجتماع. وكل فساد يقع في دنيا الناس منشؤه الأثرةُ الضالةُ والهوى الكاذب. ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[2]

---

(١) النِّساء : ١٣٥.

(٢) النّازعَات : ١٩.

أيها القارئ الكريم:

إنَّ العلم نعمةٌ من الله – جَلَّ وَعَلاَ – تَفَضَّل بها، وَيُثبِتُ مَن يسعى إليها، ويُقَدِّم شكرها.

ولا حُجَّة للناس إذا ضَلُّوا بعد علم، أو فسدوا بعد معرفة؛ فإن العلم بيان وتبيين وهو حُجة عليهم ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [1]

والعلم بمدلوله العام نعمةٌ منح اللهُ أسبَابَها في النَّفس وفي الكون. وجعلَ له هدفاً وغايةً.. وهدفُه الإنْسان عقيدةً وسلوكاً، وغايته أن يُعْرف الحقُّ – جل وعلا– وأن يطاع أمره. ولن يصلح أمر الإنسان إلا بتحقيق هذه الغاية، فبها وحدها تخضعُ العلم – بنتائجه – للمثل والفضائل.. وينعم الناس بالطمأنينة والأمن؛ لأن ما في قلوب الناس من إيمان يحكم ما في أيديهم من متاع.. فلا يفلت العلم بنتائجه من ضوابط الحق والعدل التي يؤمن بها الإنسان.

ولست أفهم لحضارة العلم – بعد ما وهب الله مادَّته وأسْبَابَه – إلا دلاَلَة واحدة. معرفة الخالق والبرّ بالمخلوق، وكلا الأمرين مرتبط بالآخر لا ينفك عنه؛ إذ لا برَّ بالمخلوق وقد جُحِد الخالق لا معرفة للخالق وقد ظُلم المخلوق.

ولا عيب على العلم في ذاته إذا الناس صرفوه عن غايته وحَوَّلوه عن هَدَفِه.

غاية العلم: معرفة الحق، وهداية الخلق، وسعادة البشر.

والإنسان هو المُلوم إنْ هو مع العلم ضَلَّ وأضَلَّ.

من هنا كانت حاجة الإنسان إلى دين الحق؛ ليصون النفسَ – أوَّلاً – من غوائل الهوى، ويعصم الفكر من الغرور، ويقيم العدل في داخل النفس؛ ليتحقق أمره

(١) النساء : ١١٥.

في الخارج، ويجعل من العلم وسيلةً للمنفعة المشتركة والود المتصل، كما هو وسيلة للإقرار بالخالق والبرّ بالمخلوق.

ومن عجب أن يَدَّعي أصحابُ الحضارة المادية - فيما يدَّعون - أن الإسلام قد عوَّق أهلَه أن ينهضوا ويتابعوا النهضة ! وقد أغراهم بهذا واقع حال المسلمين، فاتخذوا منه دليلاً يَصِمُونَ به الإسلام نفْسَهُ. والإسلام من دعواهم ومن حال من يخالفُه برئ.

نحن لا نغالي إذا قلنا: إن ما بيد الماديين من حضارة إنْ هو إلاّ وليدُ العقيدة الإسلامية التي أعتقت العقل وأفسحت أمامه المجال، وفكَّت أسْره بوحدانية ربِّه، فأقامت في الدنيا أُسَسَ الحضارة الكاملة لبني البشر.

قلت: إن الإسلام يطلب الإيمان بالله عن طريق التأمل والفكر وإقامة الدليل العقلي؛ ليصل من ذلك كله إلى أن للكون ربًّا عالماً مُبدعاً حكيماً.

وإننا لنرى القرآن الكريم يلفت أنظارنا إلى آيات الله في الكون وهي تعود علينا بالمنفعة إن نحن أَحْسَنَّا التأمل في أمرها ومعرفة قانونها ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]

(١) البَقَرَة : ١٦٤.

والإسلام في أخص عقائده يخاطب الفكر ويقدم الدليل ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[1]

إن خاتم الرسل لم يأت بمعجزة تَسْلُبُ النفس إرادتها وتجعلُها تستسلم خاضعةً لقوة التأثير من خارجها، لا من قوة الإقناع والاقتناع من داخلها.

إن معجزة محمد ﷺ معجزةٌ باقيةٌ لا يراها جيل دون جيل أو يُبْصرها قبيل دون قبيل. إن معجزته القرآن وهو كتاب يُخاطبُ النفس فيُحيي مواتَها، ويَجْعَلُ لَها نوراً تمشي به في الناس.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾[2]

أخي المسلم:

إن الحضارة التي تُقام بهذا الدين هي حضارةُ الإنسان بلا تفرقة بين فضائل روحه ومطالب جسده، والعلم الذي يرعى أحد الجانبين دون الآخر يقيم معركةً صاخبةً في ذات الإنسان - أولاً - لا تلبث أن تتحرك منه إلى خارجه في أنانية جشعة وأَثَرَة مُفزعة، وهذا ما انتهت إليه حضارةُ المادة حين استجابت لغرائز الإنسان

(١) المؤمنون : ٩١.

(٢) الشورى : ٥٢، ٥٣.

وشهواته. فلم تلبث تلك الحضارة أن انتكست على نفسها. فحطمت أو كادت تحطم ما صنعت وتدمر ما أقامت.

إن العلم في حضارة الإسلام عبادةٌ يُتقَرَّبُ به إلى الله، لذا فإن نتائجه خاضعةٌ لمنطق الإيمان وبرِّ اليقين، وهذا العلم هو الذي يُحقق مراقبة وخشية.

أخي المسلم:

احذر أن يكون علمُك خاضعاً لدنياك، وأن تكون غافلاً عن آخرتك. ووازن بين أيام محدودة تعيشها هنا وبين امتداد لا ينقطع هناك.

صحح القصد في طلب العلم؛ حتى تكون خطاك في سبيل الله. واسمع ما يقوله رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي عَنْ أَنَس ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ** » [1]

وفي حديث أبي الدرداء فيما رواه أبو داود والترمذي: « **مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ** »[2]

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار.

❁❁❁

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي.

obeikandl.com

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

أيها القارئ الكريم:

إن الإسلام قد وضع للإنسانية أُسُسَ حضارة مجيدة، تنـــزع إلى الماضي فتعترف بجهد السابقين، وتمضي إلى المستقبل وهي تحمل عِبرة الماضي تصون بها جهادَ اللاحقين.

إن العلم ميراثٌ بشري، والحضارة التي تقوم به ليست عمل جيلٍ من الأجيال، بل هي من عمل الإنسانية من لدن آدم إلى يوم الدين. والفضل دائماً لله العليم الخبير، الذي خلق الإنسان وعلَّمه وزوده بأسباب المعرفة، وأقام له من الآيات ودعاه إلى التأمل فيها ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1]

والإنسانية ليس لها من جُهْدٍ إلا أن تكشف عن حقائق الكون، وجديرٌ بها – وهي ترى من آيات الله ما ترى – أن تصون بنِعَمِ الله كرامةَ الإنسان وحريَته وإيمانه وخُلُقَه.

تلك معانٍ لاَ يستَقيمُ أمْرُ العِلم إلا بها، ولا يبقى للحضارة أثَرٌ إلاَّ بقيامها وتحققها، فقضية الاعترافِ بالخالق، والعبودية له دون سواه، والإيمان برسله بلا تفرقة، أمْرٌ ضروري لقيام حضارة متكاملة ينعم الإنسان فيها بخصائصه، ويحيا متآلفاً متعاوناً مع غيره. وذاك ما تفقده حضارة المادة حين تُرْضي في الإنسان نزواته وشهواته، وتتنكر لقيمه وأخلاقه، ولا يُنتظر منها أن تبرَّ بالمخلوق وهي تنكر فضل الخالق ولا تشكرُه على نعمائه.

---

(١) آل عمران : ١٩٠.

إن النتائج التي تنبني على هذه الحضارة المبتورة المشوهة، يمكن تصورها في ظل الواقع الذي تحيا الإنسانية فيه، وهي تفقد أمنها وطمأنينتها، وتحيا في فزع دائم وخطر مستمر.

وماذا بعد أن يفقد الإنسان خصائصه ؟

وماذا بعد أن يصبح أزهد شئ وأرخص شئ في الحياة ؟

إن الحضارة في ظل هذا الانحراف تسير - إن صحَّ هذا التعبير - في حراسة الهوى الكذوب، والقوة الغشوم، والإنسانية الجشعة، والأهواء المفرقة، وليس بعد الواقع القائم دليلٌ يُرتجى أو بيان يُرتقب.

لكن حضارةَ الإسلام حضارةٌ متكاملة؛ لأنها تقـــوم على الوفاءِ - أولاً - لله ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ ﴾[1] والاعتراف بفضله. ويترتب على هذا الاعتراف صيانةُ النتائج وتسخيرُها في مصلحة الإنسان، فكلما تقدمت الإنسانيةُ في باب الكشف ازداد إيمانُها بربِّ الكون وتواضُعها لجلاله وبرُّها بخلقه.

ومن رحمة الله بالإنسانية أن كتاب هذه الحضارة باق يشدُّ العزم كلما اتجهت النفوس إليه، ويحمي الضمائر فلا تحيد عن الحق ولا تميل عن الصدق، ويوجب النظر إلى التأمل في السماوات والأرض وما خلق الله من شئ، ويُقيم بين بني البشر - في سعيهم وتأملهم، وحلِّهم وترحالهم - صلةَ الرحم وبرَّ التعاون، وهو يذكّرهم بأنهم إخْوَةٌ لأبٍ واحـــد ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾[2] ومُنتهون إلى مصـــير واحد

(١) طه : من الآية ٥٠.

(٢) النّساء : من الآية ١.

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1] فيحقق مع السعي طمأنينةَ الأمن، ويعصمُ الفكر برُشد الإيمان، ويقيم - مع التفاوت في الحظوظ أدب اليقين. ومع العدو والصديق استقامة العدل ورعاية الحق، كما يُقيم بين الأفراد والجماعات والأمم وشائج التعاون والرحمة، ويجعلُ المؤمنين بمبادئه قوةَ أمن تحمي المُثُل أن تُضَيَّعَ فَيُضَيَّعَ معها الإنسان. وجنودَ حراسةَ يجاهدون في سبيله ويبتغون رضاه. تصدر إليهم الأوامر باسم الله وهم مكلفون بتنفيذها ما لم تخالف أمره أو نهيه.

والحلال عندهم بَيِّن والحرام بَيِّن، وما اشتبه أمرُه فهم متَّهون عنه لا يحومون حوله ولا يقتربون منه؛ خشية الوقوع فيه. وتلك قوة أمن ذاتية تقوم مع الإسلام عادلة معتدلة قانونها الحق وميزانها العدل. قانونها مع العدو والصديق، والقريب والبعيد.

﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[2]

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[3]

والحضارة الإنسانية في صورتها الكاملة ما لم تنبع من قلب الإنسان وضميره، ومن نزاهته وعدله، بل من صلته بربِّه وخشيته من خالقه، فلا يمكن إلا أن تكون عَوْناً للشهوة الذاتية والهوى المغرق.

هَبْ أن إنساناً يرى الدنيا حَظَّه، خُلق لها و لم يُخلق لغيرها، فهو ينتقل بعدها إلى مصير مجهول في نظره، صورته المادية فناء، وحقيقته المعنوية لا يراها بعين البقاء.

---

(١) فُصِّلَت : من الآية ٢١.

(٢) البَقَرَة : من الآية ١٩٠.

(٣) النَّحل : ٩٠.

هذا الإنسان هل يمكن إلاَّ أن يكون حريصاً على إحراز أكبر حظ ممكن من الدنيا بأي سبيل ومن أي طريق ؟

تحكمه غايتُه، وتأسِرُه شهوته.

إن سعي الإنسان خاضعٌ لغَايته، وغايتُه هي التي تتحكم في سُلوكه وسعيه، فإذا كانت الغاية موقوتة كان الإنسان معها عاملاً لوقته غافلاً عن غده، فالإنسان الذي يرى الدنيا غايته لا بُدَّ أن تتحكم الدنيا - بمفاتنها ومادياتها - في سلوكه، فلا يُرىَ منه إلا التنافس المسعور عليها والتقاتل من أجلها. وحينئذ تعمل النفس بقواها وإدراكها لهذه الغاية، وتخضع لمطالبها، وفي ذلك خسران - أيُّ خسران - للروابط الإنسانية والتعارف والتعاون، إذ تنشأ مع هذه الغاية الأنانيةُ الفردية، والهوى المغرِّق، فينعدم التكافل وتُفْتَقَدُ الرحمة.

أخي المسلم:

إن دُنيانا تلك لا يَصْلح أمرها بغير الإيمان بالله واليوم الآخر. وكل سلوك يقوم على غير هذا الأصل خبيث وخيمُ العواقب: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[1]

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[2]

---

(١) الأعراف : ١٤٧.

(٢) الإسراء : ٩، ١٠.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم:

ابتغ بعلمك وعملك الله والدار الآخرة؛ فإن الذين لا يؤمنون بالآخرة تُزَيَّنُ لهم أعمالهم هنا ويكون خسرانهم هناك.

✿✿✿

(١) سبأ : من الآية ٨.

(٢) النمل : ٤، ٥.

obeikandl.com